

مجموعة مؤلفين

اللغة والهوية في الوطن العربي

إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES



الفصل الثاني

انشقاق الهوية

جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى

من منظور تاريخي

محمد جبرون

مقدمة

تُعد الهوية وقضاياها من الإشكاليات الحديثة في التداول الفكري الإنساني، إذ لا تخلو ثقافة من الثقافات المكوّنة للنسيج الإنساني على وجه البسيطة من سؤال الهوية ونسله. يتزامن هذا الاهتمام والحرص مع تنامي مظاهر العولمة الثقافية التي ضيقت كثيرًا على الخصوصيات المحلية، ومع تصاعد نداءات الحفاظ على التنوع الثقافي وصونه عالميًا.

من ناحية أخرى، تطرح الدينامية التنموية التي يشهدها عدد من الأقطار العربية، واستراتيجيات النهضة والتمكين الحضاري التي تنفذها هاته الأقطار، تحديات جدية ومتنوعة أمام التمثل الجماعي والفردى للهوية، بحيث تؤدي إلى اختزالها، أو إعادة تعريفها بما ينسجم ويتلاءم مع التطورات الحديثة، من ثم فالنقاش في شأن الهوية في الوطن العربي في السنوات الأخيرة لا ينفصل عن هذا السياق الدولي والمحلي، إن لم نقل إنه انعكاس مباشر له.

الإشكالية والسياق

الهوية في معناها المجرد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقل بها الذات عن الآخر، فغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر، وبحضورها تحضر^(١). هذا التعريف النظري للهوية على بساطته وإجرائته في الآن نفسه، يخفي انشاقات عميقة بين الباحثين السوسولوجيين والأنثروبولوجيين. ومن أبرز وجهات النظر التي تتنازع الصواب بينها في تعريف الهوية: التصور الموضوعاني الذي يعرف الهوية باعتبارها جوهرًا ثابتًا ومستقرًا يقاوم التطور، وفوق الأفراد والجماعة؛ والتصور الذاتاني الذي ينفي أي طابع موضوعي عن الهوية ويحيلها إلى مجرد شعور بالانتماء، أو التماهي مع جماعة متخيلة؛ والتصور العلائقي الذي يحدد الهوية بكونها «بناء يُبنى في علاقة تُقابل فيها مجموعةٌ مجموعاتٍ أخرى تكون في تماسٍ معها» (فريدريك بارث (Fredrik Barth))^(٢).

يأخذ كل طرف من هذه التصورات، من منظور تكاملي، بطرف من الحقيقة، فكل واحد منها يوافق مجالاً علمياً أكثر من غيره، ويستجيب لمقاربات منهجية محددة. وإذا كان لا بد من المفاضلة بينها واختيار أحدها أساساً نبنى عليه في هذه الدراسة، فإننا سنختار التصور الموضوعاني مع بعض التعديل، مراعاة للطبيعة التاريخية لهذا العمل؛ فللظفر بحقيقة تأثير لغة التعليم في الهوية في المغرب الأقصى، لا بد من حدود ثابتة في المعادلة، وتقليص حجم المتغير فيها، واختارنا مفهوم الهوية باعتباره أحد الحدود الثابتة، من دون أن نصحب معنا الموقف اللصيق بهذا التصور، الذي يفيد جمود مفهوم الهوية وعدم تطوره.

انطلاقاً من هذه المقدمة النظرية يمكن اشتقاق مفهوم الهوية العربية بصورة تناسب موضوع هذه الدراسة واختياراتها المنهجية، وهو ما يمكن صوغه على النحو التالي: الهوية العربية هي مجموع الخصائص التي تميز

(١) عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٠)، ص ٦٨.

(٢) دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني؛ مراجعة الطاهر لبيب، علوم إنسانية واجتماعية (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧)، ص ١٤٩ - ١٥٤.

الجماعة العربية من غيرها من الجماعات الإنسانية، وعلى رأس هذه الخصائص المميزة: اللغة العربية؛ والدين الإسلامي؛ والحضارة العربية - الإسلامية. فالوجود العربي في التاريخ والحاضر الإنساني مرتبط بهذه الخصائص واستمراريتها، ولا يُتصوّر وجوده بعيداً منها.

تواجه الهوية العربية اليوم في أبعادها الثلاث تحديات صعبة، يرتبط بعضها بضغط العولمة ونفوذ النموذج الغربي، ويرتبط بعضها الآخر بمقتضيات النهضة والتقدم في المجال العربي، ومن جملة هذه التحديات: لغة التعليم والبحث العلمي التي هي في عدد من البلدان العربية لغة أجنبية، إما فرنسية أو إنكليزية. ابتداءً نفترض أن اللغة المستعملة في عدد من المؤسسات التعليمية العربية ومراكز البحث العلمي... انعكاساً مباشراً على تعريف الهوية العربية وآفاقها، وللحد من التأثيرات السلبية لهذا التحدي في استقرار الهوية وتطورها السلس، لا بد من إدراك التفاعل القائم بين الهوية ولغة التعليم من منظورات معرفية مختلفة إدراكاً كلياً أو شمولياً، استناداً إلى نماذج ملموسة، ومن ثم، فهذه الدراسة في شكلها ومغزاها هي معالجة علمية - تاريخية لهذه الفرضية.

سيؤدي إدراك العلاقة القائمة بين اللغة والهوية في المجال العربي إدراكاً علمياً حتماً إلى انبثاق «سياسة لغوية»^(٣) ناجعة تصون مفردات الهوية وتُثريها من جهة، وتساهم في تحرير إرادات التنمية والنهوض من جهة ثانية، والظاهر اليوم من خلال أكثر من تجربة عربية ضعف الاهتمام بالسياسات اللغوية، وعدم استقرارها، ونتيجة ذلك فشل «التخطيط اللغوي»، ولا أدل على ذلك من اجتياح اللغات الأجنبية لمناطق حساسة من

(٣) أوّل من استخدم مفهوم السياسة اللغوية في المجال التداولي الإنكليزي كان جوشوا فيشمان (J. Fishman) في كتاب صدر عام ١٩٧٠ يحمل العنوان نفسه، ثم ظهر في بقية اللغات بعد ذلك مثل الإسبانية والألمانية والفرنسية... وعزّفها لويس جان كالفني على النحو التالي: «السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة والوطن». انظر: لويس جان كالفني: حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة؛ مراجعة سلام بزي - حمزة، لسانيات ومعاجم (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨)، ص ٢٢١، ٢٢٤، والسياسات اللغوية، ترجمة محمد بحياتن (بيروت: منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم - ناشرون، ٢٠٠٩)، ص ١٠ - ١١.

مجالنا العربي من دون أن تكون لنا القدرة على إخضاعها للمقتضى الثقافي والتنموي العربي.

علاقة اللغة بالهوية علاقة معقدة وبالغة الحساسية، ويكمن جانب من حساسية هذه العلاقة في شكلها النظري؛ فاللغة ليست معادلاً تاماً لجنس الهوية، ولا تستقل عنها، بل هي جزء منها، وأهم مكوناتها الدينامية، وبالتالي طرح الموضوع على هذا النحو، أي علاقة الجزء المتمم إلى الجنس بكل الجنس (الهوية)، القصد منه وضع علاقة هذا الجزء بكله تحت المجهر، ومن ثم تحليل طبيعة هذه العلاقة، واكتشاف تطوراتها، والتأثيرات المتبادلة بين طرفيها.

اللغة، منظوراً إليها من زاوية الهوية، ليست مجرد أداة تواصلية محايدة وسلبية، بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهوية، وتطويرها، أو - على العكس من ذلك - تدهورها وتحللها، إضافة إلى أنها أحد أركانها وأنحائها الكبرى. ولإدراك هذه الحقيقة بصورة أفضل، نسوق مثال تركيا الكمالية: كان مصطفى كمال (أتاتورك) يدرك جيداً طبيعة العلاقة بين اللغة العربية والهوية العثمانية لتركيا، القائمة على الإسلام. لهذا أسرع في استهداف طرفي هذه العلاقة من خلال مشروع «الثورة اللغوية» التي استهدفت تعزيز مكانة اللغة التركية وتصفية الوجود اللغوي العربي، وفي النهاية ترسيخ العلمانية. ومن أهم قرارات هذه «الثورة»: وضع أبجدية لاتينية للغة التركية (١٩٢٨)؛ إلغاء تعليم العربية (١٩٢٩)؛ إلزام الأتراك قراءة القرآن بالتركية بدلاً من العربية (١٩٣١)؛ إلزام الأتراك التسمي بأسماء تركية (١٩٣٤)^(٤)، وهو ما جعل هذه الثورة - على حد قول لويس جان كالفي (Louis-Jean Calvet) - «ترجمة لغوية لمعركة علمانية تحديثية معادية للعثمانية»^(٥).

إذا كان هذا شأن اللغة عموماً إزاء الهوية، فهل يستمر الوضع نفسه في حال دخول لغة أخرى غريبة عن «ذات الهوية» إلى مجالها السيادي من باب التعليم أو البحث العلمي؟ هل تستطيع الهوية مقاومة التأثيرات السلبية للغة

(٤) كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ٢٦١ - ٢٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

الوافدة؟ كيف يمكن تسوية هذا الاضطراب الهوياتي؟ هل بإقصاء اللغة الوافدة والانغلاق على الذات أم بالاستيعاب العقلاني لها؟

في الحالة العربية تقوم اللغة العربية اليوم بمجموعة من الوظائف الحساسة لمصلحة الهوية (الدين والتراث والتاريخ...) (٦)، إذ تساهم في إنتاجها وتُعبّر عن كينونتها، وفي هذا السياق يقول أحد كبار الباحثين المغاربة عن الوظيفة الدينية للغة: «لا يُتصور، عقلاً، الحفاظ على القرآن دون الحفاظ على لغته، لأن لغته جزء لا يتجزأ منه» (٧). غير أن استقرار هذه العلاقة التبادلية بين الطرفين سرعان ما يختل بسبب دخول اللغة الأجنبية إلى مجالها السيادي، دخولاً غير مدروس. وعلى الرغم من أن اللغة الدخيلة تستمد شرعية دخولها من حاجة حضارية وجيهة، يُسمّيها بعض المتخصصين حاجة الإثراء الحضاري وتوسيع آفاق الفكر (٨)، فإنها عملياً لا تقف عند حدود هذه الحاجة، بل تسعى شيئاً فشيئاً إلى منافسة اللغة الأصل في وظائفها، بما فيها تلك الشديدة الصلة بالهوية، وهو ما يؤدي إلى زعزعة الأمن الهوياتي، وإضعاف معاني الانتماء.

من ثم، فلغة التعليم والبحث العلمي والنشر الأكاديمي، إذا كانت بغير لسان الهوية، ومدمجة بشكل غير مدروس، تفتن هذه الأخيرة،

(٦) يجب الانتباه إلى أن مفهوم الوظيفة في سياق هذا البحث يختلف عن مفهومها لدى عدد من علماء اللغة المعاصرين، فالوظائف التي نبحثها هنا تتعلق أساساً بطبيعة الأدوار السوسولوجية للغة، وهو خلاف مذهب بعض علماء اللغة الذين اعتنوا بدراسة اللغة باعتبارها كياناً مجرداً، وبخاصة منهم برونياسلاف مالنوفسكي (B. K. Malinowski)، والنمساوي كارل بيولر (Karl Bühler)، وجاكوبسون (R. Jakobson)، وجيمس بريتون (J. Britton)، وديسموند موريس (Desmond Morris)، والإنكليزي مايكل هالداي (Michael Hallyday)... وفي شأن هذه الوظائف انظر: م. أ. ك. هالداي، «وظائف اللغة»، ترجمة محمود أحمد نحلة، اللسان العربي، العدد ٥٤ (٢٠٠٢).

<<http://arabization.org.ma/magazinefiles/54/pdf/103.pdf>>

(٧) الودغيري، اللغة والدين والهوية، ص ٥٤.

(٨) «تحدث جوشوا فيشمان (J. Fishman) عن أصناف الازدواجية وحصرها في ثلاثة نماذج أساسية هي: النموذج التعويضي الذي يرمي إلى إدماج الطفل في الثقافة السائدة، النموذج الذي يرمي إلى الاحتفاظ باللغة المستضعفة، ونموذج الإثراء وهدفه توسيع آفاق الفكر والعاطفة عند المتعلم». انظر: إدريس السغروشني، «الآثار الناجمة عن ازدواجية اللغة في تكوين الملكة اللغوية العربية في المراحل الأولى من التعليم» ورقة قُدمت إلى: ندوة أكاديمية المملكة المغربية حول «قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب» (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٣)، ص ١١١ - ١١٢.

وتبعثر قوانينها، وهو ما يقتضي الالتفات نحو الأسئلة التي تطرحها بأقصى سرعة ممكنة، حتى نضعف «حكم الواقع»، ونُقوّي «حكم العقل» في مصيرنا العربي.

إن هذه الدراسة مكرسة - إذًا - لمقاربة إشكالية الهوية ولغة التعليم من منظور تاريخي تحليلي، ننتقل فيه من التجربة المغربية؛ فهذه الإشكالية ليست حديثة بالمطلق في الوطن العربي، فالحديث والطارئ فيها هو حضورها العام في سائر الأقطار العربية، بعدما كانت في الماضي مقتصرة على بعضها، وعلى رأس الأقطار التي خبرت هذه الإشكالية وتفاعلت معها منذ زمن طويل أقطار المغرب الأقصى. اخترنا المنظور التاريخي لمقاربة هذه الإشكالية تقديرًا لفائدته الحيوية في بناء الجواب الاستراتيجي العربي عن سؤال الهوية ولغة التعليم، ذلك أن مقاربة موضوع «الهوية ولغة التعليم» من منظور نظري أو تطبيقي/مخبري غير كافٍ، إذ مهما بلغت دقة العمل النظري، وفاعلية الوسائل والتجارب التطبيقية والميدانية، فإن نتائجها تحتاج إلى الخبرة التاريخية. كما أن مساحة النسبية التي يمكن اعتبارها آفة العلوم الإنسانية تضيق وتتقلص مع تعدد المنظورات المنهجية للظاهرة المعرفية، وبالتالي تكون المقاربة التاريخية متممة لأخواتها في معالجة إشكالية «الهوية ولغة التعليم».

انطلاقًا من هذه القناعة المعرفية والمنهجية، اخترنا معالجة إشكالية الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي. ولبلوغ الغاية من هذه المعالجة، عمدنا إلى تفكيك إشكالية البحث، وتقسيمها إلى محورين: يتناول أحدهما «الفتح العربي»؛ والثاني «الغزو الفرنسي»^(٩)، وتأثير كل منهما في هوية المغرب الأقصى، وسنحاول في ما يلي توضيح هذين المحورين:

في ما يتعلق بـ المحور الأول، كان المغرب الأقصى في السنوات الأولى بعد الفتح الإسلامي أمازيغي اللغة والهوية، على الرغم من اعتناق طائفة واسعة من أبنائه الإسلام. لكن مع تقدم الزمان وتوالي السنين، حصل تحول كبير في بنية الهوية المغربية، وأخذت شيئًا فشيئًا طابعها العربي، بعد

(٩) نقصد من خلال هذا التعريب الجانب اللغوي لا الجانب السياسي.

تعرب أنحاء مهمة من النشاط الحضاري، وبخاصة على المستويات الثقافي والسياسي والإداري. لم يؤدّ هذا التحول إلى اندثار اللغة الأمازيغية وغيابها من المشهد، بل على العكس من ذلك حافظ على وجودها، وتقاسمت الوظائف مع اللغة الجديدة بنوع من التكامل. وكان لانتشار التعليم العربي أو التدريس بالعربية، باعتبارها لغة الدين، أثر حاسم في هذا التطور الذي شهدته الهوية المغربية.

أول قرار اتخذته الأمازيغ عند استقبالهم طلائع الفتح الإسلامي بعد أخذ وردّ هو اعتناق الإسلام واتباع هديه والتسليم لقادته من العرب، ولم يكن من مقتضى هذا القرار ومفهومه تبديل اللسان وترك اللغة الأم واتخاذ لغة الفاتحين. فالتطور الذي عرفته الهوية الأمازيغية لحظة الفتح مسّ المكون الديني منها بالأساس، وأبقى على سائر المكونات الأخرى كما هي من دون تغيير، بما فيها مكون اللغة. غير أن اتساع رقعة الإسلام في بلاد الأمازيغ من جهة، واستقرار عدد من الفاتحين العرب فيها من جهة ثانية، وطبيعة العلاقة التي تجمع الإسلام باللغة العربية من جهة ثالثة، فتحت الباب أمام دخول اللسان العربي إلى المغرب الأقصى من دون أن يصبح مكونًا هويّيًا في ذلك التاريخ المتقدم.

أدى بالتالي رسوخ العوامل السالفة مع مرور الزمان (الإسلام، والاستقرار العربي، ومقتضيات التدين) إلى انتساب العربية إلى الهوية المغربية ومشاركتها الأمازيغية النفوذ والتأثير، وهو ما أهلها مع مرور الوقت للاضطلاع بأدوار حيوية في القرون التالية للفتح، حيث ساهمت بقوة في تعريب الحضارة المغربية في العصر الوسيط، وبالتالي صوغ الهوية العربية للمغرب الإسلامي، بعد أن أمست لغة الثقافة والحضارة، إضافة إلى كونها لغة الدين، ولغة شريحة واسعة من سكان المغرب الأقصى.

من ثم يقتضي تحليل تأثير لغة التعليم (العربية) في الهوية من منظور تاريخي، واستنادًا إلى تجربة المغرب الأقصى تتناول أربع عناصر معرفية بمنهج تاريخي تحليلي:

- الهوية المغربية قبيل الفتح الإسلامي.

- ظهور التعليم العربي في المغرب الأقصى وتطوره المجالي والنوعي.
- مقاومة الأمازيغية لنفوذ العربية ومحاولات تمييز الإسلام.
- تأثير اللغة العربية في هوية المغرب الأقصى.

تجدر الإشارة في ختام هذه الفقرة إلى أن الدراسات التاريخية حول الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى في العصر الوسيط تكاد تكون معدومة، إذ لم نعرث في أثناء تقلب فهارس البحث المغربي والعربي على أي دراسة في هذا الباب، وأقصى ما وجدناه هو دراسات وأبحاث تتناول قضايا الإشكالية العامة وجزئياتها، أتينا على ذكرها، وأفدنا منها في ثنايا هذه الدراسة، ولا داعي لإطالة الحديث عنها هنا.

أما في ما يخص المحور الثاني، فإشكالية الهوية ولغة التعليم في التاريخ المعاصر للمغرب الأقصى تتخذ بعداً مختلفاً عن البعد السالف الذكر، إذ عرفت هذه الفترة دخول اللغة الفرنسية إلى المجال التداولي المغربي، مدعومة من المستعمر الفرنسي، وأريد لها أن تكون لغة إدارة الاحتلال، وإحدى وسائل السيطرة والنفوذ الاستعماري. لتحقيق هذه الأهداف، بلورت سلطات الاحتلال الفرنسي - منذ سنواتها الأولى - سياسة لغوية محكمة توخت سلب العربية بعض وظائفها التاريخية وتقويتها اللغة الدخيلة. وعلى الرغم من قصر المدة التي أمضاها الاحتلال الفرنسي في التراب المغربي، والتي لا تتجاوز ٤٤ سنة، فإن آثار اللغة الفرنسية في الهوية المغربية كانت واضحة، سواء في أبعادها الدينية أو الثقافية أو الحضارية.

لم تنته محنة الهوية المغربية مع الفرنسية باستقلال المغرب وانسحاب الفرنسيين، بل تفاقمت أكثر بعد فشل الحكومات المتعاقبة بعد الاستقلال في إعادة العربية إلى مكانتها السابقة، وتعرش مشاريع التعريب في الإدارة والتعليم والاقتصاد... ومن أولى علامات تدهور الهوية في المغرب الأقصى الذي تسببت به الفرنسية، تراجع مكانة العربية في الحياة العامة، واختلال مفهوم الدين، وتلاشي مفهوم الانتماء الثقافي والحضاري لدى الفئة الفرانكفونية.

هكذا، يقتضي تحليل تأثير اللغة الفرنسية في الهوية العربية للمغرب الوقوف عند العناصر التالية:

- استخدام اللغة الفرنسية في التعليم: البدايات والتطور.
- النخبة المفرنسة بالمغرب الأقصى بُعيد الاستقلال.
- «التوسع الوظيفي» للفرنسية في مغرب الاستقلال.
- تأثير اللغة الفرنسية في الهوية المغربية.

تجدر الإشارة - كذلك - في هذا السياق إلى أن الدراسات والأبحاث التاريخية في شأن تأثير اللغة الفرنسية في الهوية المغربية قليلة جدًا، مقارنة بالأبحاث التي تتناول السياسة اللغوية أو التعليمية لسلطات الحماية ودولة الاستقلال بشكل جزئي ومن منظورات معرفية غير تاريخية، وسنعود في ثنايا البحث إلى أكثر من مرجع في هذا الباب.

المنهج

إن موضوع «لغة التعليم والهوية»، منظورًا إليه من زاوية التاريخ، موضوع شاق وثقيل على المؤرخين في السياق الثقافي العربي، نظرًا إلى طبيعته المجردة؛ فالإخباريون الأوائل والمدوّنون وأصحاب السير... لم يتسع أفقهم الفكري في القرون الأولى من تاريخنا العربي لذكر أخبار «مجردة» بشكل واسع. وعلى الرغم من هذه الصعوبة، حاولنا صيد الأخبار، وكل نادرة وشاردة، من أجل بناء نص تاريخي مقنع، يسلط الضوء على التطورات التاريخية للغة التعليم في علاقتها بالهوية في المغرب الأقصى في لحظتين تاريخيتين دالتين. وللإشارة، معظم هذه الأخبار أخبار تاريخية مادية، أو قرارات ثقافية ملموسة، وسنعود إلى الحديث عنها في الصفحات التالية.

بغض النظر عن الصعوبة السالفة، توسلنا - لإنتاج خطاب تاريخي متماسك في شأن موضوعنا - منهجًا تاريخيًا واضحًا، له نفوذ واسع في صفوف المؤرخين المعاصرين من العرب وغيرهم، وهو المنهج الوضعي (Positivisme) الذي يمتاز بخاصيتين:

الأولى أنه لا يعترف بأي معرفة تاريخية لا تستند إلى الوثائق، فكل استنتاج أو خبر لا تدعمه الوثائق الصحيحة، هو استنتاج ضعيف، وخبر واهٍ^(١٠)؛

الثانية أنه يعتمد بشكل كبير على نقد الوثيقة، فلا تاريخ من دون وثيقة، ولا تاريخ - أيضاً - من دون نقد، ومن أبرز أنواع النقد الوضعاني: نقد المصادر، نقد التفسير، نقد صدقية الوثيقة وأمانتها^(١١).

من أشهر منظري هذا المنهج الذي استفدنا من إشارات في هذه الدراسة هو الفرنسي شارل سنيوبوس (Charles Seignobos) الذي عاش بين عامي ١٨٥٤ و ١٩٤٢، مؤلف كتاب *La Méthode historique appliquée aux sciences sociales* (المنهج التاريخي التطبيقي في العلوم الاجتماعية) الذي أفصح فيه بالتفصيل عن مقومات المنهج الوضعي في الدراسة التاريخية.

سنقارب موضوع «جدل الهوية ولغة التعليم في المغرب الأقصى من منظور تاريخي» وضعياً، من خلال وحدتين زمنيّتين: الأولى وسيطية، والثانية تمتد من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية عقد السبعينيات من القرن الماضي. وسنعاني في أثناء ذلك - بسبب المنهج - نقص المادة المصدرية (الوثائق) في بعض الأحيان، وهو ما سيجعل الخطاب متموجاً يتأرجح بين الغنى والفقر.

في هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى خصوصية توظيف هذا المنهج في معالجة إشكالية هذا البحث، فالخطاب التاريخي الذي نروم إنتاجه في شأن لغة التعليم والهوية في المغرب الأقصى ليس خطاباً جامداً كلاسيكياً يقف عند المعنى الظاهر للنص التاريخي، بل خطاب تحليلي يصل المفردات والأحداث التاريخية بعضها ببعض، ويضفي على النصوص التاريخية معاني في الأغلب أبعد من تلك الظاهرة التي يتناولها معظم الناس، ونضرب لذلك مثل نصوص المتنبيين في المغرب في العصر الإسلامي، وتحديداً «قرآن» حاميم الغماري، و«قرآن» صالح البرغواطي اللذين رأى فيهما جمهور

Charles Seignobos, *La Méthode historique appliquée aux sciences sociales* (Paris: Editeur (١٠) Félix Alcan et Guillaumin Réunjes, 1909), p. 17-28.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٧٧.

المؤرخين ضلالات محلية، وهي كذلك، وهذا هو معناها القريب. غير أننا، من منطلق إشكالية البحث وسياق التحليل، رأينا فيها دليلاً على مسعى محلي لـ «تمزيغ» الإسلام... وبالتالي اضطررنا إشكالية البحث في كثير من المناسبات إلى أن نخلع معاني جديدة على نصوص وأحداث مألوفة، لتحقيق بعض التطورات النوعية في مسار البحث.

المصادر

في أثناء بحثنا الجدل والتفاعل القائم بين لغة التعليم والهوية في مغرب الفتح، أي الوحدة الأولى من البحث، رجعنا إلى طائفة واسعة من المصادر، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

- قسم مشرقى، ومن أشهر عناوينه: فتوح البلدان للواقدي (ت. ٢٠٧هـ)، فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (ت. ٢٥٧هـ)، وفتوح البلدان للبلاذري (ت. ٢٧٩هـ)، ومروج الذهب للمسعودي (ت. ٣٤٥هـ)، وعدد من النصوص الجغرافية القديمة مثل كتاب البلدان لليعقوبي (ت. ٢٨٤هـ)، وصورة الأرض لابن حوقل (ت. قريباً من ٤٠٠هـ)، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري (ت. حوالى ٣٩٠هـ)....

- قسم إفريقي، نسبة إلى إفريقية (تونس الحالية)، ومن أبرز عناوينه: كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب محمد بن تميم (٣٣٣هـ)، ورياض النفوس لأبي بكر عبد الله المالكي المتوفى بعد ٤٦٠هـ، معالم الإيمان لأبي زيد الدباج (ت. ٦٠٥هـ)، تاريخ إفريقية للرقيق القيرواني (كان حياً في عام ٤٢٥هـ)....

- قسم مغربي، ألفه كتاب من المغرب الأقصى، ومن أبرز عناوينه: العبر لابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ)، والبيان المغرب لابن عذاري المتوفى قريباً من منتصف القرن الثامن الهجري، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع المتوفى في بداية المئة الثامنة، وكتاب الحلل الموشية لمجهول، والتشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي (ت. ٦)، ومفاخر البربر لمجهول، والمدارك للقاضي عياض (ت. ٥٤٤هـ)....

إن هذه الأقسام الثلاثة من المصادر متفاوتة الأهمية بالنسبة إلى

موضوعنا، ووجب التعامل معها بحذر نظرًا إلى عدد من النواقص التي تشوبها. بالنسبة إلى النوع الأول، وعلى الرغم من معاصرته الأحداث التي تناولها في بحثنا، فإن معظم الكتاب كانوا بعيدين من موقع الأحداث، ونقلوا عن رواة لم يكونوا حريصين على الحقيقة التاريخية بما يكفي، إضافة إلى خاصية الاختصار التي طبعت معالجتهم أحداث المغرب، أما بالنسبة إلى النوع الثاني من هذه المصادر، فأصحابها قصر نظرهم على إفريقية واعتنوا برجالها وأحداثها، ولم يتعرضوا إلا نادرًا لأحوال المغرب الأقصى. وعلى الرغم من ذلك، فهي تحوي معطيات نوعية بالنسبة إلى موضوعنا. أما النوع الثالث من هذه المصادر الذي ألفه مغاربة، على أهميته وتناوله تفاصيل الوضع التاريخي المغربي، فإن جل مؤلفيه عاشوا بعد المئة السادسة، وهو ما جعل حديثهم عن الأخبار الأولى للمغرب الأقصى موضع تساؤل.

إن إدراكنا المسبق لمحدودية الثروة المصدرية التي بين أيدينا، جعلنا من الناحية المنهجية، نرقص بين ثلاثة عوالم نحاول الإفادة من إيجابيات كل منها، في مسعى إلى بناء صورة تاريخية مكتملة القوام.

أما في ما يتعلق بـ وحدة البحث الثانية التي تمتد من أواخر القرن التاسع عشر إلى عقد السبعينيات من القرن الماضي، فرجعنا فيها إلى طائفة متنوعة من المصادر، من أبرزها:

- الجريدة الرسمية للمملكة المغربية التي صدرت أعدادها الأولى في عام ١٩١٣؛

- نصوص وقرارات بعض أركان السياسة الاستعمارية، وأهمها النصوص التي ترجمها عبد العلي الودغيري في كتابه الفرانكفونية والسياسة اللغوية، ومن أهم ما تحويه دورية ليوتي؛

- مجلات ودوريات صدرت في فترة البحث، مثل مجلة أقلام، ومجلة أنفاس بطبعيتها العربية والفرنسية، ومجلة رسالة الأديب؛

- تقارير ومحاضر اجتماعات مثل تقرير خمسينية الاستقلال، ومحضر اجتماعات إيكس لبيان؛

- مذكرات أقطاب الحركة الوطنية مثل مذكرات محمد حسن الوزاني، ومذكرات أبي بكر القادري، وكتاب النقد الذاتي لعلال الفاسي؛

- شهادات مباشرة استقيناها من أفواه عدد من المسؤولين كان لهم دور في سنوات الاستقلال الأولى، ومن أهم هذه الأسماء محمد بلشير الحسني؛ إن هذه المجموعة المصدرية كافية لصوغ خطاب تاريخي متوازن ومقنع عن موضوع الدراسة، غير أن المشكل الذي يحاithها، الذي يجب الحذر من تداعياته على الموضوعية وبنية الخطاب، هو زيادة المادة المصدرية عن الحد، الأمر الذي يمكن أن يضلل البحث ويُشعبه إلى مسالك متعددة إذا لم ينتبه الباحث، ولتجاوز هذه الآفة لا بد من ممارسة قدر غير قليل من الانتقائية في التعامل مع المعطيات، وقمنا ببعض من ذلك، من دون التنازل عن مطلب الموضوعية.

أولاً: المغرب الأقصى من الهوية اللاتينية - الأمازيغية إلى الهوية الإسلامية - العربية خلال العصر الوسيط

شكّل حدث الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى في نهاية القرن الأول الهجري منعرجاً تاريخياً كبيراً، يُعتبر - من دون مبالغة - ولادةً جديدة لهذا الكيان، غيرت أسماءه ومسمياته؛ فانطلاقاً من هذا الحدث، أخذ المغرب الأقصى في اكتساب مفردات هوية جديدة، والتخلي تدريجياً عن الهوية البائدة. استغرق هذا التحول الهوياتي - حتى استوى على سوقه واكتملت صورته - قرابة ثلاثة قرون (من ق. ١هـ. حتى ق. ٤هـ). في هذا السياق التاريخي المميز لم تكن اللغة العربية سلبية أو محايدة، حيث ساهمت من خلال الوظائف التي اضطلعت بها على المستوى الديني والثقافي بفاعلية في صيغ هذا التحول، وإكساب المغرب هويته العربية - الإسلامية. كيف حصل ذلك؟ وما قصته؟

نحاول في هذا الفصل تحليل عملية الانتقال التاريخي من الهوية اللاتينية - الأمازيغية نحو الهوية العربية - الإسلامية التي دشنها الفتح الإسلامي في المغرب الأقصى، وفي صلب ذلك الكشف عن دور لغة التعليم العربية في هذا التحول.

١ - هوية المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي

إن مناقشة مسألة الهوية في المغرب الأقصى في هذا التاريخ المتقدم مسألة بالغة التعقيد، ومحفوفة بالمخاطر المنهجية والمعرفية، وذلك لقلة المصادر التاريخية التي تتناول هذه الحقبة من جهة، وإهمال هذا القليل خبر الهوية وما يتصل بها من جهة ثانية. وعلى الرغم من هذه الصعوبات، سنحاول خوض هذه التجربة المعرفية وتدبير «الندرة التاريخية» في أفق بناء وجهة نظر علمية تاريخية منسقة ومتوازنة حول الهوية المغربية في حقبة الفتح الإسلامي. توجد أخبار المغرب الأقصى في بداية العصر الوسيط متفرقة بين مظان عدة: بعضها مشرقي ألفه بعض المؤرخين العرب مواكبة منهم للفتح والدولة الإسلامية في شمال أفريقيا، وأبرز مظهر لهذا النوع فتوح البلدان، وبعض النصوص الجغرافية الأخرى؛ وبعضها الآخر مغربي ألفه مؤرخون مغاربة، لكنه متأخر عن الأول بعض الشيء.

من أهم مصادر الصنف الأول: كتاب فتوح البلدان للواقدي (ت. ٢٠٧هـ)، وفتوح البلدان للبلاذري (ت. ٢٧٩هـ)، ومروج الذهب للمسعودي (ت. ٣٤٥هـ)، وعدد من النصوص الجغرافية القديمة مثل كتاب البلدان لليعقوبي (ت. ٢٨٤هـ)، وصورة الأرض لابن حوقل (ت. قريباً من عام ٤٠٠هـ)، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري (ت. حوالى عام ٣٩٠هـ)، والمغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكري (ت. في عام ٤٨٧هـ)...

من أهم مصادر الصنف الثاني: كتاب العبر لابن خلدون (ت. في عام ٨٠٨هـ)، والبيان المغرب لابن عذاري (ت. قريباً من منتصف القرن الثامن هـ)، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع (ت. بداية المئة الثامنة)، وكتاب الحلل الموشية لمجهول... وانطلاقاً من هذه المظان، سواء المشرقية أم المغربية، سنحاول اكتشاف عناصر الهوية المغربية لحظة الفتح الإسلامي.

لم يكن المغرب الأقصى لحظة قدوم طلائع الفاتحين صفر اليدين من الناحية الحضارية والثقافية، فموقعه المتميز الذي جعل منه ملتقى التيارات الحضارية الكبرى المشرقية والغربية من جهة، وتاريخه العريق من جهة ثانية، مكّنه من اكتساب هوية متفردة الخصائص. وتتجلى فرادة هذه الهوية

وخاصيتها في مستويين اثنين: الديانة واللغة، أما على مستوى الثقافة والحضارة فلم يتمكن المغاربة من التميز من غيرهم من الشعوب المتوسطية بإنجازات نوعية، وخصائص مستقلة قادرة على صوغ مفهوم خاص للهوية الحضارية في المغرب الأقصى قبل الإسلام، ولعل المانع من ذلك هو النزول الكثيف للحضارات المتوسطية في بلاد البربر مثل الفينيقية واليونانية والرومانية والوندالية والبيزنطية. وسنحاول في ما يلي تقديم فكرة موجزة عن عنصرَي الدين واللغة في المغرب الأقصى قبيل الفتح، بصورة تساعدنا في فك مستغلقات هذه الدراسة.

أ - الديانة

كان المغرب الأقصى في بداية القرن السابع الميلادي ومنتصف القرن الأول الهجري يعج بالديانات والملل، بعضها سماوي المصدر، وبعضها الآخر وضعي بشري. ومن أشهر هذه الديانات التي لقيها الفاتحون في طريقهم وذكرها مؤرخو الفتوح:

- النصرانية: استقرت في شمال أفريقيا منذ بداية القرن الميلادي الثاني. انطلقت من المدن الساحلية، ومنها توغلت في المدن الصغيرة الداخلية، واستطاعت طائفة مهمة من أمازيغ شمال أفريقيا اعتناق الديانة الوافدة وتأسيس كنيستها المستقلة التي توافقت حيناً مع الدولة الرومانية، وتصارعت معها حيناً آخر^(١٢). وعند وصول طلائع الفاتحين إلى بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، وجدوا في طريقهم أمماً من النصارى البربر والروم، إذ ذكر ابن عذاري في خبر عقبة بن نافع أن النصارى كانت تهرب من طريقه يميناً وشمالاً وهو يستفتح البلدان ويغزو في سبيل الله^(١٣).

استقرت المسيحية في المغرب الأقصى في الحواضر والأمصار الشمالية

(١٢) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط ٣ (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢)، ص ٥٩ - ٦١، ومحمد شفيق، «لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغيين»، تيفات، العدد ١٠ (١٩٩٧)، ص ٢٦ - ٢٧.

(١٣) أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، ط ٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٠)، ص ٢٤.

مثل طنجة وسبتة ووليلي... ونعلم من خلال أخبار الفتح المتواترة أن الأمصار الشمالية، وخصوصاً مدينتي سبتة وطنجة، كانت تحت حكم الملك المسيحي يوليان. وتذكر بعض الروايات التاريخية أن عقبة بن نافع، عند دخوله المغرب الأقصى، اجتمع به وسالمة قبل اتجاهه نحو الجنوب. ولم تنجح المسيحية في مجاوزة الشريط الساحلي، والانتشار وسط المغرب الأقصى وجنوبه الذي كان مستقلاً عن البيزنطيين، حيث حافظ البربر في الأغلب على معتقداتهم المحلية القديمة، وأكد يوليان هذه الحقيقة لعقبة بن نافع عندما قال له: «وما أمامك [أي خارج ملكه] إلا البربر؛ وهم مثل البهائم، لم يدخلوا في دين نصرانية ولا غيرها»^(١٤). وعلى الرغم من محدودية انتشار المسيحية في المغرب الأقصى، واقتصارها على الهوامش الساحلية من البلاد، فإنها استطاعت الحفاظ على وجودها والتعايش مع الإسلام إلى حدود القرن الحادي عشر الميلادي، بحسب إفادة بعض المؤرخين، مستفيدة في ذلك من مناخ الحرية الدينية الذي أشاعه الإسلام في المغرب الأقصى^(١٥).

- اليهودية: تُعد الديانة اليهودية ثاني الديانات السماوية التي اعتنقها بعض البربر في المغرب الأقصى، ولا يُعرف تاريخ محدد لظهور هذه الديانة في شمال أفريقيا؛ فابن خلدون على سبيل المثال يعتقد أن اليهودية جاءت بلاد البربر آتية من الشام، بعد استفحال مُلك بني إسرائيل^(١٦)، في حين أشار أندريه شوراكي (André Chouraqui) في كتابه تاريخ اليهود في أفريقيا الشمالية إلى لجوء اليهودية إلى شمال أفريقيا بعد هزيمتها في عقر دارها أمام الآراميين^(١٧).

(١٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦؛ شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩)، ص ٢٧٩ و ٣٠٤، وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط ٦ (القاهرة: دار المعارف، [د.ت.].)، ص ٤٩٤.

(١٥) جوليان، ص ٣٨٥.

(١٦) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ١٠ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ج ٦، ص ١٢٦.

(١٧) André Chouraqui, *Histoire des Juifs en Afrique du nord: Tome 1: Du Rocher* (Paris: Hachette, ١٩٧٠), p. 52.

- المعتقدات الوثنية: قُبل الفتح الإسلامي انقسمت المعتقدات الدينية في بلاد البربر بين وضعية ووثنية، بعضها محلي النشأة، وبعضها الآخر وافد على المغرب الأقصى من جهة الشرق أو جهة الشمال^(١٨). وأجرى اصطيغان اصيل دراسة علمية دقيقة لديانات البربر في العصور المتقدمة في كتابه الضخم تاريخ شمال إفريقيا. وعلى الرغم من بعض الأحكام السلبية في حق المغاربة التي حوتها هذه الدراسة، فهي ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى موضوعنا. ومن أشهر العبادات الوثنية التي انتشرت في بلاد البربر قبل الإسلام، عبادة الحيوانات وعبادة الإنسان (الملوك أو رجال الدين) والجن (الغول) والشمس والقمر وآمون (إله الكبش) وآلهة البونيقين وآلهة اليونان والفينيقيين^(١٩)... ويشكل هذا التعدد الوثني أحد معاني قول يوليان لعقبة عن بربر الجنوب: «لم يدخلوا في دين نصرانية ولا غيرها».

انتشرت هذه الوثنيات المحلية والعالمية في الأماكن التي تمتع فيها البربر بنوع من الاستقلال السياسي والثقافي، والتي تقع جنوب المناطق الساحلية التي انحصر فيها الوجود المسيحي - البيزنطي. ويذكر المؤرخون عن ديانة هؤلاء البربر أنهم كانوا مجوسًا^(٢٠)، غير أن الناظر في مفهوم المجوسية كما عرّفها فقهاء الملل والنحل وغيرهم، التي تقوم على ثنائية الأصلين النور والظلمة، لا يجد لها أثرًا في ما انتهت إليه الدراسات التاريخية من معتقدات هؤلاء^(٢١). والراجح أن المقصود بها هو الوثنيات المحلية، ذلك أن الرواة الأوائل لم تكن معرفتهم بالأديان تتجاوز الديانتين السماويتين، وعبادة الأصنام، والمجوسية القائمة على ثنائية النور والظلمة^(٢٢). ووظفوا

(١٨) جوليان، ص ٧٨.

(١٩) اصطيغان اصيل، تاريخ شمال إفريقيا، ترجمة محمد التازي سعود، ج ٦ (الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٧)، ص ١٠٧ - ١٤٨.

(٢٠) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٦، ص ١٢٧، وابن عذارى المراكشي، ج ١، ص ٢٤.

(٢١) على سبيل المثال، انظر: اصيل، ج ٦، ص ١٠٧ - ١٤٨، وأبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره وذوّله بالحواشي وأردفه بالروايات لويس شيخو اليسوعي (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢)، ص ١٧.

(٢٢) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل (بيروت: دار الفكر، [د.ت.])، ص ٢٣٣ و ٢٣٤.

هذا القاموس في وصف الحالة الدينية في المغرب في خلال الفتح، وعنهم نقل المتأخرون مثل ابن خلدون وابن عذاري وغيرهما، وبالتالي فحديث المؤرخين عن المجوسية في هذا التاريخ المتقدم من تاريخ المغرب الأقصى هو حديث بالدرجة الأولى عن الوثنية.

عمومًا، كان المغرب الأقصى عند مجيء العرب الفاتحين في بداية القرن السابع الميلادي مقسمًا بين ثلاث ديانات رئيسية: المسيحية المحصورة في السواحل الشمالية حيث النفوذ البيزنطي؛ واليهودية في أنحاء متفرقة من البلاد؛ والوثنية التي سادت في عدد من مناطق الوسط والجنوب.

ب - اللغة

استعمل بربر شمال أفريقيا في القديم وحتى زمان الفتح لغات وألسنًا متعددة، بعضها أصيل لم ينطق به أحد خارج هذه البلاد، وبعضها الآخر وافد، دخل أفريقيا الشمالية صحبة المستعمرين الأوائل. ومن أبرز اللغات التي اقتسمت النفوذ بينها على المجال التداولي في بلاد البربر في هذا العهد: الأمازيغية، واللاتينية، والعبرية.

- اللغة الأمازيغية: تُشكّل الأمازيغية اللغة الأم لسكان شمال أفريقيا الأصليين، وهي تنتسب إلى اللغة الليبية القديمة التي انتشرت في سائر بلاد البربر، ويعتبرها كثيرون إحدى لهجاتها^(٢٣). وما زال تاريخ الأمازيغية يلفّه الغموض في كثير من الجوانب، وتغلب فيه الفرضيات على اليقينيات، على الرغم من البحوث الكثيرة المنجزة حولها في الفترة المعاصرة من طرف اللسانيين والمؤرخين، إذ على سبيل المثال ما زالت مسألة الكتابة والحرف، ومسألة الأصل مثار نقاش بين الباحثين إلى اليوم.

بغض النظر عن هذه المسائل، كانت الأمازيغية في عموم بلاد البربر لغة التواصل الاجتماعي بين الناس، ولم ترقَ إلى لغة الدولة، حتى في عهد سيادة الممالك الأهلية، فسيفكس ومسنيسا ومن خلفوهما لم يستعملوا

(٢٣) اكصيل، ص ٨٣؛ جوليان، ص ٧٨، وميلود التوري، الأمازيغية والفنيقية وبينهما العبرية واليونانية (الرباط: مطبعة الرباط، ٢٠٠٩)، ص ٥٨.

الأمازيغية في إدارة شؤون الدولة، واتخذوا بدلاً منها لغات وافدة مثل البونيقية^(٢٤)، وهو ما جعل الحواضر والأمصار الأمازيغية مجالاً لتداول لغات وافدة، أكثر من تداول الأمازيغية، ويظهر هذا الأمر بوضوح في المجالين الثقافي والسياسي. وخلافاً لهذا، اقتصر نفوذ الأمازيغية وتداولها على الأرياف والبادي التي شكّلت عبر التاريخ مجالها الحيوي، وساهمت النساء اللاتي لا يخرجن من عائلاتهن أو قراهن دوراً حاسماً في الحفاظ عليها في المجال الريفي، واستمرارها ونقلها إلى أبنائهن^(٢٥)، ويعزز هذا الرأي أن ما اكتُشف من آثار ونقوش أمازيغية في الأرياف أكثر من تلك التي اكتشفت في المدن^(٢٦).

صفوة القول، إن اللغة الأمازيغية في المغرب الأقصى كانت عند إقبال الفاتحين لغة التواصل الاجتماعي الرئيسة بين البربر في الأرياف، ولم تشاركها لغة أخرى هذه الوظيفة مشاركة معتبرة. أما في المدن فاستبدت بشكل كبير اللغات الوافدة وعلى رأسها البونيقية واللاتينية بوظائف اللغة المختلفة، وعلى رأسها الوظيفتين الثقافية والسياسية، ثم - كذلك - الوظيفة التواصلية^(٢٧).

- اللغة اللاتينية: ارتبط انتشار اللغة اللاتينية في بلاد البربر بنفوذ الإمبراطورية الرومانية في هذه المناطق، حيث شكّلت لغة المستعمر الأساسية على مستوى التواصل والإدارة، إذ «اضطرت الحياة الحضريّة عددًا كبيرًا من البربر إلى تعلم اللغة اللاتينية المفروضة في المحاكم والمجالس البلدية والكتائب»^(٢٨). وتُعتبر الحواضر الرومانية المغربية مثل طنجة ووليلي... مراكز اللاتينية الأساسية في موريطانيا الطنجية (المغرب الأقصى) في هذا التاريخ؛ إذ عُثر على نقوش كثيرة في مناطق متفرقة من

(٢٤) اكصيل، ص ٨٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(٢٦) شفيق، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢٧) يشير محمد شفيق في دراسته السالفة الذكر إلى ظهور لغة عامية في بعض الحواضر تجمع بين الفنيقية والأمازيغية، وفي السياق نفسه يشير إلى ظهور مجموعة من المثقفين الأمازيغيين الذين ألفوا باللغة اليونانية واللاتينية.. انظر: المصدر نفسه، ص ٣٩ - ٤١.

(٢٨) جوليان، ص ٢٤٨.

بلاد البربر، بلغ عددها في المغرب الأقصى نحو ٨٥٠ نقيشة، عثر على معظمها في ويلي^(٢٩)، وهي عبارة عن معاهدات سلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وكُتبت جل هذه النقوش باللغة اللاتينية، وهو ما يدل على نفوذ هذه اللغة، ومكانتها السياسية في هذه الحقبة من تاريخ المغرب.

أدى رسوخ اللغة اللاتينية بين البربر في المغرب الأقصى إلى نبوغ عدد منهم في الثقافة اللاتينية، واستعمالهم اللاتينية في تعبيرهم الأدبي والديني، ومن أشهر المثقفين الأمازيغ الذين كتبوا باللاتينية تيرنتيوس آفر (Terentius Afer)، وأبوليه (Apulée)، والقديس أغسطينوس (Augustinus)^(٣٠).

يرجع انتشار اللغة اللاتينية بين البربر في شمال أفريقيا بالدرجة الأولى إلى سياسة الإمبراطورية الرومانية التي كانت تهدف إلى رومنة الأهالي بوسائل مختلفة مثل التعليم وغيره^(٣١)، حيث تسابقت البلديات والأثرياء في فتح المدارس حتى في القرى، ومنح بعض الأهالي حق المواطنة الرومانية، وإرسال بعض أطفال البربر إلى روما ليتربوا تربية لاتينية رومانية، وهو ما أدى مع مرور الوقت إلى تكوّن مجتمع لاتيني أمازيغي في عدد من الحواضر الموربة (المغرب الأقصى)، ويظهر ذلك بقوة في أسماء عدد من البربر وألقابهم، بمن فيهم الملوك مثل الملك يوبا، والملك الموري بوكود^(٣٢)، حيث أمسى كثير منهم يجمعون بين الاسم المحلي واللقب اللاتيني^(٣٣).

إجمالاً، بقيت اللغة اللاتينية مكوناً رئيساً في المشهد اللغوي المغربي حتى قدوم طلائع الفتح الإسلامي، بخاصة في الحواضر الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

(٢٩) مصطفى أعشي، نقائش معاهدات السلام بين الباكوات الأمازيغ والرومان في موريطانيا الطنجية، سلسلة نصوص ووثائق؛ ٢ (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٤)، ص ٨.

(٣٠) شفيق، ص ٤٠ - ٤٢.

(٣١) جوليان، ص ٢٤٨.

(٣٢) اكصيل، ج ٦، ص ١٠٥.

(٣٣) تشير النقيشة ٦ التي عُثِرَ عليها على قبر أحد أبناء الباكوات الأمازيغ في روما، ويظهر من اسم الأب المثبت في الشاهد أن أباه كان يتمتع بالمواطنة الرومانية. انظر: أعشي، ص ٢٨ و ٢٩.

- اللغة العبرية: دخلت بلاد البربر في تاريخ متقدم يتأرجح بين القرنين السادس والثالث ق. م، و«كانت لغة دين وطقوس وتعبُّد، وبهذه الصفة ارتبطت بالتعليم والمعرفة، ولم تكن لغة كلام دارج إلا في حدود ضيقة جدًا، انحصرت بين الأخبار ومريديهم في سياق الدرس والتحصيل أو في التواصل مع يهودي أجنبي عن المغرب»^(٣٤).

انطلاقًا من الحقائق التاريخية المذكورة أعلاه، لم يتميز المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي بهوية خاصة ذات صفات موحدة، بل اتسع لأكثر من توليفة هوياتية، اقتسمت النفوذ على المجال الجغرافي المغربي، ومن أبرزها: الهوية الأمازيغية - الوثنية التي سادت مغرب الصحراء؛ والهوية اللاتينية - النصرانية التي سادت المغرب المفتوح (الشمال)، وبشكل نسبي مغرب الوسط؛ والهوية العبرية - اليهودية التي تخللت المغرب الثلاثة^(٣٥). غير أن هذا التمايز الهوياتي من الناحية المجالية لم يكن دقيقًا وتامًا، كما توحي بذلك الصيغة الصورية، بل كان هناك تداخل بين مختلف الأنساق الهوياتية، بخاصة في مغرب الوسط الذي شكل منطقة اتصال بين المغرب المفتوح ومغرب الصحراء.

٢ - ظهور التعليم العربي في المغرب الأقصى وتطوره المجالي والنوعي

ارتبط ظهور التعليم العربي في المغرب الأقصى بانتشار الدين الجديد ورسوخه في قلوب سكان هذا الإقليم، حيث كانت اللغة العربية هي لغة الإسلام الذي اعتنقوه طوعًا. ويبدو من خلال مصادر هذه الحقبة - على الرغم من شحها - أن التعليم العربي تأخر بعض الوقت عن إسلام البربر، ولم يتزامن معه، كما أن المغرب الأدنى أو «بلاد إفريقية» بلفظ مؤرّخي

(٣٤) التوري، ص ١٠٨.

(٣٥) يقسم العروي المغرب قبل دخول الإسلام إلى ثلاث مجالات المغرب المفتوح (السواحل المتوسطة) الذي كان محط الغزاة الأجانب منذ القدم وآخرهم البيزنطيون، ومغرب الوسط الذي كان يتأرجح بين السيطرة الأجنبية والممالك المحلية، ومغرب الصحراء الذي لجأ إليه البربر مطرودين أو فارين من الغزاة. واستنادًا إليه حاولنا في هذه الدراسة التمييز بين ثلاث كيانات هوياتية: أمازيغية - وثنية، نصرانية - لاتينية، يهودية - عبرية. انظر: العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج ١، ص ٩٨ - ١٠٧.

هذه الحقبة، استفادت من التعليم العربي قبل المغرب الأقصى (بلاد طنجة).

من أقدم الأخبار الموثوقة التي تتعلق بالتعليم العربي في المغرب الأقصى - والتي نعثر عليها بين أخبار الفتوح، ووراء غبار المعارك القاسية بين الفاتحين والبربر - ثلاثة أخبار متقاربة: الأول يشير إلى أمر والي «إفريقية» والمغرب موسى بن نصير العرب الذين كانوا في جيشه وعددهم نحو ١٢ ألفاً بتعليم البربر القرآن وتفقيهم في الدين، وذلك في أثناء غزوه طنجة بعد توليه من طرف الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٨٥ هـ. والخبر الثاني وقع في ظرف قريب من الأول، يشير إلى ترك موسى عدداً من الرجال العرب صحبة البربر في طنجة للغرض نفسه، اختلف المؤرخون في تقديره بين سبعة عشر رجلاً، وسبعة وعشرين رجلاً^(٣٦).

قبل هذا التاريخ لا نعثر على أخبار ذات صدقية تتعلق بممارسة تعليمية عربية في المغرب الأقصى، باستثناء ما ذكره أكثر من واحد عن ترك عقبة ابن نافع لعدد من أصحابه بين البربر في أثناء فتحه المغرب، بهدف تلقينهم القرآن وشرائع الإسلام، غير أن هذا الخبر مشكوك في صحته من أوجه عدة، لعل أبرزها اضطراب خبر توغل عقبة بن نافع في المغرب الأقصى ووصوله إلى البحر المحيط، وكذلك الردّة المتكررة للبربر منذ البدايات الأولى للفتوح... حتى ولاية موسى بن نصير (٨٥هـ)^(٣٧).

أما الخبر الثالث فيتعلق ببعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين إلى بلاد المغرب في حدود عام ١٠٠ هـ، ليفقهوا أهل «إفريقية» ويعلموهم أمر دينهم^(٣٨). غير أنهم فضلوا الاستقرار في القيروان، ولم يتجاوزوها إلى أمصار النواحي الغربية، واكتفوا - عندما ثارت «الخوارج»

(٣٦) ابن عذارى المراكشي، ج ١، ص ٤٢، وإبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب (القاهرة: دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ١٩٩٤)، ص ٥٢.

(٣٧) ابن عذارى المراكشي، ص ٤٢؛ العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج ١، ص ١٠٠ - ١٠١، وأبو يعقوب بن يحيى التادلي بن الزييات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٨٤)، ص ٥١ - ٥٢.

(٣٨) ابن عذارى المراكشي، ج ١، ص ٤٨.

على حنظلة بن صفوان^(٣٩) في طنجة نحو عام ١٢٤ هـ يبعث رسالة من مقامهم في القيروان باسمه إلى أهلها يذكرونهم بفحوى رسالة الإسلام، وأثبت المالكي نص هذه الرسالة في رياض النفوس^(٤٠).

خلافًا لحالة التأخر التي كان يعيشها المغرب الأقصى، استفادت «إفريقية» مبكرًا من التعليم العربي الذي ارتبط بجهود الأسلمة، ومن الأدلة على ذلك ما ذكره عدد من المؤرخين من استقرار عدد من الصحابة فيها واعتنائهم بتفقيه البربر وتلقيهم تعاليم الدين الجديد منذ منتصف القرن الأول الهجري^(٤١). بل الأهم من هذا كله في هذه الحقبة هو اتساع التعليم العربي ليشمل الغلمان والصغار، بعد ظهور الكتاب في القيروان وذلك في حدود العقد السابع من القرن الأول الهجري^(٤٢).

كما أن ولاية موسى بن نصير على «إفريقية»، الممتدة بين عامي ٨٥ هـ و٩٦ هـ، تُعد البداية الفعلية للتعليم العربي في المغرب الأقصى، المرتبط أساسًا بتلقي العقيدة والعبادات وأحكام الدين الجديد، وسيزيد من رسوخ هذا التعليم واتساعه الصراع المذهبي والسياسي الذي دخله المغرب مبكرًا في بداية المئة الثانية.

إذا كان التعليم العربي على رأس المئة الأولى عامًّا، يهم سائر المسلمين الجدد وفي النواحي كلها، فإنه في الآن نفسه كان بسيطًا ومحدودًا، بحيث لم يتجاوز تلقين بعض سور القرآن الكريم للقيام بالصلاة، وبعض الأدعية. غير أنه سرعان ما اتخذ طابعًا ثقافيًا، أكثر عمقًا، وأبلغ تأثيرًا في مستوى الهوية ابتداء من المئة الثانية، بعد ظهور بؤر تعريبية

(٣٩) ابن عذارى المراكشي، ج ١، ص ٥٨؛ الرقيق القيرواني، ص ٦٨؛ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق شارلز توري (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٦١)، ص ٢٩٨، وابن خلدون، كتاب العبر، ج ٦، ص ١٢٩.

(٤٠) عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس، تحقيق البشير البكوش، ط ٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤)، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٩٨.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٩١، وعبد الرحمن بن محمد بن الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ط ٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٨)، ص ١٥١.

نشيطه في أكثر من جهة في المغرب الأقصى، ووصف عدد من الجغرافيين القدامى، وأصحاب المسالك والممالك هذه البؤر، وأوردوا عددًا من الأخبار الدالة على اتساع التعليم العربي بها، ومن أشهرها:

- نكور: أسسها أحد الفاتحين العرب على عهد الوليد بن عبد الملك، وهو سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري، وكانت في أولها رباط جهاد^(٤٣).

- سبتة: التي جاز منها طارق بن زياد إلى الأندلس، وكانت منذ الفتح العربي مركزًا علميًا مزدهرًا، ساعدها في ذلك قربها من الأندلس التي كانت وتيرة التعريب فيها أقوى وأكثر فاعلية، ويقال عن أحد رجالاتها، وهو أبو زرعة، إنه أول من أدخل القرآن إلى المغرب^(٤٤).

- البصرة: تقع هذه المدينة قرب مدينة القصر الكبير شمال المغرب، سبق إليها التعليم العربي، وكان أهلها شغوفين بالعلم، قال عنها ابن حوقل: «وفيها قوم لهم ميل إلى السلامة والعلم»^(٤٥).

- سلا: كانت هذه المدينة رباطًا من رباطات الجهاد ضد البرغواطيين، يفتد إليها المجاهدون من آفاق مغربية مختلفة. وانسجامًا مع هذا الدور، احتضنت الدعاة وفسحت لهم المجال للتوعية والتعليم^(٤٦).

- فاس: تحولت بعد تأسيسها إلى منارة من منارات التعليم العربي في شمال المغرب، بسبب جامع القرويين الذي أسس فيها^(٤٧).

- سجلماسة: كانت هذه المدينة قاعدة من قواعد التعليم العربي في

(٤٣) أبو عبيد البكري، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب (القاهرة: منشورات دار الكتاب الإسلامي، [د.ت.]), ص ٩١.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٠٣، ومحمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بنجر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط ٣ (القاهرة: المطبعة الملكية، ١٩٩٦)، ص ١٣.

(٤٥) أبو القاسم محمد بن حوقل، كتاب صورة الأرض (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢)، ص ٨١.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٤٧) عبد الهادي التازي، جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس: موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ط ٢ (الرباط: دار نشر المعرفة، ٢٠٠٠)، ص ١١١ - ١١٥.

الجنوب الغربي للمغرب الأقصى، قال عنها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري: وأهلها «يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة»^(٤٨).

- أغمات: كانت مدينة عامرة بعد الفتح الإسلامي، ومستقر المرابطين الذين يجاهدون في برغواطة، كانت فيها سوق علمية نافقة، ويدل على ذلك انتشار المساجد وكثرة العلماء والمدرسين فيها^(٤٩)، وفي جوارها كان رباط شاعر المنسوب إلى أحد أصحاب عقبة بن نافع الذي ساهم بدوره في التعريب^(٥٠).

نتيجة رسوخ التعليم العربي في هذه الأمصار، ظهرت نخبة ثقافية عربية «صلبة»، تكونت من مجموعة من الفقهاء والأدباء، تجاوز صيت بعضهم حدود المغرب الأقصى، وما زالت مصنفات التراجم تحتفظ لنا بعدد من تراجم هؤلاء، ولمع من أخبارهم. ومن أشهر من اعتنى بهذه النخبة من المعاصرين، وبدافع قومي - وطني، الشيخ العلامة عبد الله كنون في كتابه الشهير النبوغ المغربي، اعتمادًا على مجموعة من المصادر، إذ ترجم لعدد منهم، وعلى رأسهم في مجال الفقه: دراس بن إسماعيل (ت. ٣٥٧هـ) الذي أدخل المذهب المالكي إلى المغرب، وأبو جيدة بن أحمد (ت. ٣٦٥هـ) وهو من أشهر فقهاء فاس، ومن كبار أهل العلم فيها في هذا الزمان^(٥١)، وعيسى ابن حيون، فقيه وقاضي الأدارسة في مدينة أرشقول شرق المغرب، المندثرة حاليًا، وهو من أعلام القرن الرابع^(٥٢)، وأبو هارون العمري، وهو فقيه لامع

(٤٨) ابن حوقل، ص ٩٦؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٢ (لیدن: مطبعة بريل، ١٩٠٢)، ص ٢٣٩، وابن الزيات، ص ٩٨.

(٤٩) ابن الزيات، ص ٩٢، ١٠٦ و ١٦١.

(٥٠) المصدر نفسه، الهامش ٢٤، ص ٨٩، وأبو علي صالح، كتاب القبلة (مخطوط، ضمن مجموع، رقم، ٩٨٥ ق.)، ص ١٤ - ١٥.

(٥١) عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ط ٢ (بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ١٩٦١)، ص ٤٩ - ٥٢.

(٥٢) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: القسم الأول من السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤)، ص ٢٤٥.

من بصره المغرب، توفي قريباً من منتصف القرن الرابع الهجري، وصديقه أحمد بن حذافة، وبشار بن ركانة^(٥٣)... أما في مجال الأدب فتدل الشواهد التاريخية التي وصلتنا على تداوله الواسع نسبياً في بلاد المغرب، وذكر ابن عذاري وغيره قطعاً كثيرة من قصائد ترجع لمغاربة عاصروا هذه الحقبة^(٥٤)، وهي - في عمومها - مجرد أمثلة، الغرض منها الإشارة إلى ظروف تخلق جنين الثقافة العربية في المغرب الأقصى في حدود المئة الرابعة.

أما بعد انصراف القرن الرابع الهجري، وإلى نهاية العصر الوسيط (العصر المريني)، فشهد التعليم العربي تطورات مجالية ونوعية مهمة، يرجع الفضل في اكتشافها إلى مصادر هذه الحقبة الوفيرة نسبياً مقارنة بالقرون التالية للفتح، ولعل أبرز مثال دال عن هذا التطور ما ذكره بعض القدامى عن فاس بين القرنين الرابع والسادس، فأهله في المئة الرابعة كان «فيهم ثقل وغباء، قليل العلماء وكثير الغوغاء»^(٥٥)، لكن مع حلول المئة السادسة، وبسبب انتشار التعليم، أمسوا «ظرفاء أدباء، وأكثرهم فقهاء»^(٥٦).

- على المستوى المجالي: اتسع نطاق التعليم العربي بعد المئة الرابعة، بالتوازي مع انتشار التعليم الديني، وأضيفت إلى المراكز التعليمية الأولى مراكز أخرى جديدة، همت أنحاء مختلفة من المغرب الأقصى، ومن أبرز هذه المراكز بحسب إشارات الجغرافيين والمؤرخين: دار المرابطين في ملكوس أو نفيس في سوس الأقصى، التي كان يديرها الشيخ وجاج بن زلو اللمطي^(٥٧)، ومركز تامل في جبال درن (الأطلس الكبير)، الذي أسسه محمد ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية؛ ومركز القرويين في فاس، الذي زاد نشاطه بشكل ملحوظ ابتداء من العصر المرابطي؛ ومراكز أخرى كثيرة فاقت

(٥٣) القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق محمد بن شريفة، السلسلة التاريخية؛ ١، ط ٢ (الرباط: وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية، ١٩٨٢)، ج ٥، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٥٤) ابن عذاري المراكشي، ج ١، ص ١٧٨ - ١٧٩، ١٨٣، ٢٢٦ و ٢٣٦، وكون، ص ٥٤.

(٥٥) المقدسي، ص ٢٣٠.

(٥٦) أبو عبد الله الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق (بور سعيد: منشورات

مكتبة الثقافة الدينية، [د.ت.])، ص ١١٤.

(٥٧) ابن الزيات، ص ٨٩، وابن عذاري المراكشي، ج ٤، ص ٨.

الخمسة عشر، انتشرت بصفة خاصة في مناطق الوسط والساحل الأطلسي، ذكر ابن الزيات التادلي في التشوف طرفاً منها في المئة السادسة^(٥٨). تعزز دور هذه المراكز، سواء تلك التي أسست قبل المئة الرابعة أو بعدها، بشبكة واسعة من الكتاتيب القرآنية، غطت معظم المعمور من بلاد المغرب الأقصى، بما في ذلك القرى^(٥٩).

- على المستوى النوعي: شهد استعمال اللغة العربية في المجال التعليمي في المغرب الأقصى تطورات نوعية مهمة بعد المئة الثالثة، تجسدت في تحولها من «لغة دين»، يقتصر استعمالها على الفرائض الشرعية والممارسات التعبدية، إلى «لغة علم»، تشكل وعاء الفكر المغربي في أبعاده الدينية والأدبية والعقلية، وانسجاماً مع هذا التحول اتسع نطاق استعمالها، ولم تعد محصورة في الكتاتيب والمساجد باعتبارها دوراً للعبادة، وتعدتها إلى الرباطات والمدارس.

في أواخر القرن الأول الهجري كانت اللغة العربية لغة دينية محضة، شديدة الصلة بالحاجات الدينية للمسلمين الجدد، تدل على ذلك طريقة المغاربة في تلقين القرآن وتحفيظه، التي لا زالت متبعة إلى اليوم في الكتاتيب القرآنية المغربية، وتعطي هذه الطريقة الأولوية للحفظ على تعليم اللغة، وهي - للإشارة - مخالفة لطريقة القيروانيين والأندلسيين من بعض الجوانب^(٦٠).

على رأس المئة الأولى وفي بداية الثانية، لم تكن حاجة بربر المغرب إلى اللغة العربية تتجاوز الحاجة إلى حفظ بضع آيات من الكتاب الحكيم، تسعفهم في القيام بفرائضهم الدينية، بخاصة بالنسبة إلى الراشدين. لكن بعد مدة من استقرار الإسلام في كيان المجتمع البربري، حصلت نقلة نوعية في وظيفة اللغة العربية في المجال المغربي، حيث أمست لغة «علم» وثقافة. وإن كنا لا نستطيع تحديد تاريخ هذه النقلة بالدقة المطلوبة بسبب شح المعلومات، وتُغَر المصادر، غير أن الراجح لدينا أنها

(٥٨) ابن الزيات، ص ٥١٣ - ٥١٤.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ١٢٥، ١٨١ و ١٨٤.

(٦٠) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (بيروت: دار الكتب العلمية،

١٩٩٢)، ص ٦٢٣.

تمت في حدود المئة الرابعة، وذلك اعتمادًا على بعض الأخبار والآثار^(٦١).
كان «العلم» في السياق التداولي والثقافي الجديد الذي عرفه المغرب بعد الفتح يعني بالدرجة الأولى مجموعة من السماعات والروايات المتصلة بالنبي (ﷺ) وكبار الصحابة، وتتعلق بفتايات مختلفة مرتبطة بنصوص من القرآن والسيرة والحديث (عقائد، أحكام، عبادات). لفظ الفقيه أو العالم في هذا الطور من تاريخ المغرب كان مجرد وصف لشخص تميز بحفظ القرآن وبعض الأسانيد، وما زال إلى اليوم في المغرب الأقصى حافظ القرآن، ومعلمه، والقائم بالصلوات الخمس في المساجد في اصطلاح العامة يسمى الفقيه^(٦٢). والمغرب الأقصى في هذا الباب كان عالة على الشرق، ومشدودًا إليه، وبالتالي كان أهله دائمًا في حال انتظار مجيء هذا النوع من «العلم» إليهم، أو ينتقل ذوو الهمم من أبنائه إلى أعشاشه في المدينة والبصرة والكوفة، وسبب له هذا الوضع - إلى جانب أشياء أخرى - تأخرًا علميًا ملموسًا عن البلاد الشرقية.

على الرغم من ضحالة معارفنا عن «علماء» المغرب وآثارهم العلمية، في هذه الفترة المبكرة، فإننا نعتقد بوجود طبقة معتبرة منهم، تولت مسؤولية التأطير الديني للمغاربة، ومن أبرز الأعلام المنتسبة إلى هذه الفترة: «أبو القاسم سمغو بن واسول المكناسي الصفري، مقدم الصفرية بالمغرب، لقي عكرمة (ت. في عام ١٠٥ هـ) مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وحدث عنه، ثم اجتمعت عليه الصفرية بالمغرب وقدموه»^(٦٣)، وكانت وفاته - بحسب تقديرنا - في منتصف المئة الثانية؛ أبو حاتم يعقوب بن لبيب

(٦١) يقول صاعد الأندلسي في كتاب الطبقات: «إنه لما كان وسط المائة الثالثة من تاريخ الهجرة، وذلك في أيام الأمير الخامس من ملوك بني أمية وهو محمد بن عبد الرحمن.. تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم»، وبالتالي إذا كانت الأندلس تحركت لطلب العلوم في المائة الثالثة فمن المرجح أن يكون المغرب تحرك بعدها بقليل، أي في حدود المئة الرابعة نظرًا إلى الظروف الخاصة التي مرّ بها المغرب مقارنةً بالأندلس. انظر: الأندلسي، ص ٦٤.

(٦٢) حول ظهور العلم في المجال الإسلامي، انظر: ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٦٢٨ - ٦٢٩.

(٦٣) مؤلف مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباوية (الرباط: دار أبي رقرق، ٢٠٠٥)، ص ١٤٠.

المغلي من رؤساء البربر، كان حيًّا في المئة الثانية^(٦٤)؛ الإمام يحيى الأول (ت. في عام ٢٤٩هـ)؛ والإمام يحيى الرابع (ت. في عام ٣٠٧هـ)^(٦٥).

مهما يكن، ابتداء من القرن الرابع الهجري نستطيع تمييز مجموعة من الأسانيد العلمية والسماعات المغربية التي نقلها عدد من الرواد إلى أمصار المغرب الأقصى، والتي ستشكل في ما بعد أساس العلم في بلاد البربر، ومن أولى هذه الأسانيد والسماعات وأشهرها سند دراس بن إسماعيل (ت. في عام ٣٥٧هـ)^(٦٦) الذي أدخل المذهب المالكي إلى المغرب بنقله مدونة سحنون في الفقه المالكي إلى فاس^(٦٧)، وسند أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي (ت. في عام ٣٧٢هـ) الذي تميز برواية البخاري^(٦٨).

موازة مع انتقال سند العلوم إلى المغرب الأقصى بعد المئة الرابعة ظهرت مجموعة من المؤلفات والكتب في فنون شتى، وتعتبر هذه المؤلفات هي الأولى من نوعها في المغرب الأقصى في حدود علمنا، ومن أشهرها في العصر المرابطي (بين المئتين الخامسة والسادسة هـ): الإعلام بحدود قواعد الإسلام، والشفا في التعريف بحقوق المصطفى، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك للقاضي عياض، وديوان خطب لمروان بن سمجون^(٦٩)... وبرزوخ الممارسة العلمية - العربية في المغرب الأقصى ازداد حجم هذه المؤلفات وسيتنوع. وبصرف النظر عن قيمة ما صنّفه المغاربة في هذه الحقبة، وأصالته العلمية، فإنه - من زاوية موضوعنا - يدل على الدور الذي باتت تضطلع به اللغة العربية في الحياة العلمية والثقافية للمغرب الأقصى.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٦٥) التازي، ج ١، ص ١١١ - ١١٢.

(٦٦) بن عياض السبتي، ج ٦، ص ٨١ - ٨٤، ومحمد مخلوف، شجرة النور الزكية (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤٩هـ [١٩٣٠م])، ص ١٠٣.

(٦٧) المدونة في أصلها مجموع سماعات سحنون عن تلميذ الإمام مالك عبد الرحمن بن القاسم في مصر، التي أصبحت منذ تأليفها بالنسبة إلى المغاربة دليلاً من أدلة المذهب المالكي بعد الموطأ، وفي بعض الحالات اكتفوا بها.

(٦٨) كنون، ص ٥١.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٩٥.

غير أن أقوى الأدلة على تحول اللغة العربية إلى لغة العلم في هذا الطور من تاريخ المغرب الأقصى هو معرفة أهل الديانات الأخرى بها، وبخاصة اليهود، وإتقانهم إياها، واعتمادها في تقييد أبحاثهم العلمية، سواء منها الدينية أم الدنيوية. ويحكي ابن رشيق الأندلسي في أواخر المئة السابعة^(٧٠) أنه ناظر قسيساً في مدينة مرسية في الأندلس من بلاد مراكش، «فصيح اللسان مدرك للكلام»^(٧١)، كما حفظت لنا المصادر التاريخية عدداً من التراجم التي يُستشف منها تقدم أتباع الديانات الأخرى في العربية، من ذلك مثلاً: «إسحق بن يعقوب الكوهن الملقب بالفاسي، الذي ولد في قلعة ابن أحمد قرب فاس، وتوفي باليسانة عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، وهو صاحب شرح التلموذ في عشرين مجلداً بالعربية، وجامع ثلاثمئة وعشرين فتوى بالعربية حول التشريع التلموذي»^(٧٢)؛ وأبو الحجاج يوسف بن يحيى الإسرائيلي الفاسي المغربي (ت. ٦٢٣هـ) الذي انتهى به المقام في مصر^(٧٣).

من جهة أخرى، واستكمالاً لصرح هذه التحولات النوعية من الناحية المؤسساتية، انتشرت في المغرب خلال هذه الفترة الرباطات والمدارس العلمية التي تجاوزت مهمتها تخريج العُباد، إلى تخريج العلماء. ومن أقدم الرباطات المغربية التي وصلنا خبرها رباط شاعر الكائن في ناحية مراكش، الذي أسس - بحسب تقديرنا - في أواخر المئة الثانية للهجرة، بحسب ما يفيد السياق التاريخي؛ فأول ذكر لهذا الرباط كان على هامش خبر برغواطة الذين عمروا المناطق الممتدة بين الرباط ومراكش، وكان

(٧٠) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط ٢ (الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧)، ص ٧١.

(٧١) أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ١٣ ج (بيروت: دار العرب الإسلامي، ١٩٨٣)، ج ١١، ص ١٥٥.

(٧٢) عبد العزيز بن عبد الله، «الفكر الإسلامي وأثره في فلسفة موسى ابن ميمون وتطور التقاليد اليهودية»، ورقة قُدمت إلى: حلقة وصل بين الشرق والغرب: أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون (الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٥)، ص ١٠٩.

(٧٣) المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص ١٢٤.

رباط شاعر محشر المجاهدين المتربصين بكفار برغواطة، ومنطلق الدعاة الداخلين إليهم، إضافة إلى قيامه بالوظيفة التعليمية، ولا أدل على ذلك استقرار عدد من تلامذة ابن أبي زيد القيرواني فيه في أواخر القرن الرابع الهجري^(٧٤).

من الرباطات القديمة الأخرى التي ظهرت في تاريخ قريب من هذا العهد، رباط «دار المرابطين» الذي أسسه وتولاه الفقيه وجاج بن زلو اللمطي في سوس الأقصى، ولا يعلم تاريخ محدد لتأسيسه، ويرجح أنه أسس ما بين نهاية القرن الرابع وبداية الخامس، وبالمقاربة مع رباط شاعر، فإن الوظيفة العلمية لدار المرابطين أوضح، إذ ذكر ابن الزيات أن هذه الدار كانت لطلبة العلم وقراءة القرآن، كما أن معلم المرابطين عبد الله بن ياسين تخرج من هذا الرباط، وهو تلميذ الفقيه وجاج^(٧٥).

من الرباطات الشهيرة الأخرى في المغرب الأقصى، التي اضطلعت بأدوار علمية وجهادية في القرن الرابع الهجري، رباط سلا الذي كان يجتمع فيه «من المرابطين مئة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة»^(٧٦). وعلى الرغم من غلبة الغرض الجهادي على هذا الرباط بحكم موقعه، وظروف تأسيسه، فإن هذا الغرض لا يتم من دون تعليم وتلقين، وشكل هذا التجمع وانقطاع النازلين فيه عن الدنيا فرصة مناسبة لقادة رباط سلا الدينيين والعسكريين للقيام بمهام التربية والتعليم.

أما المدارس فظهرت متأخرة بعض الشيء عن الرباطات، وأقدم الأخبار التي تذكرها ترجع إلى العصرين المرابطي والموحدي، إذ أسس كل من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين عددًا من المدارس في سبتة وطنجة وفاس ومراكش، أنتجت مدرسين كبارًا سبقوا علماء قرطبة وإشبيلية وغرناطة بحسب العلامة المؤرخ المنونى، ومن أشهر هذه المدارس: مدرسة الصابرين في فاس التي أسست بأمر المرابطين، ومدرسة الموظفين في مراكش التي

(٧٤) حول هذا الرباط انظر: صالح، ص ١٤ - ١٥، وابن الزيات، الهامش ٣٤، ص ٥١.

(٧٥) ابن الزيات، ص ٨٩، وابن عذارى المراكشي، ج ٤، ص ٨.

(٧٦) ابن حوقل، ص ٨٢.

أسسها عبد المومن بن علي (ت. في عام ٥٥٨ هـ) من أجل تخريج الأطر الإدارية للدولة الموحدية، والمدرسة الملكية لتعليم الأمراء الموحدين، ومدرسة تعليم فن الملاحة في الرباط^(٧٧)... وإلى جانب المدارس «العمومية» ظهر بعض المدارس «الخاصة» التي أسسها خواص الناس، ولعل أبرز مثال لها مدرسة علي الشاري (ت. في عام ٦٤٩ هـ) في سبتة^(٧٨).

عمومًا، يُعتبر العصر الموحدى بما تضمنه من وحدات مدرسية مجرد مقدمة للعصر الذي تلاه، وهو العصر المريني الذي عرف انتشارًا واسعًا للمدارس، ففي زمان المرينيين كثرت المدارس في المغرب الأقصى، ونشأت مؤسساتها في معظم المدن الرئيسية، واستقرت برامجها ووجهتها مقارنة بالعصر السابق، وكانت جل هذه المدارس تستعمل اللغة العربية في التدريس، ولا تقبل من بين طلبتها من لا يتقن اللغة العربية كتابةً ونطقًا، وكانت المواد التي تدرس فيها لا تخرج على ثلاث مواد رئيسة: الفقه، والنحو، والقراءات^(٧٩).

إجمالًا، دخلت اللغة العربية إلى المغرب الأقصى، وأول ما ظهرت صحبة الفاتحين الأوائل، وكان دورها دينيًا صرفًا، انحصر في تلقين المسلمين الجدد مستلزمات العبادة، وعلى رأسها بضع آيات من الذكر الحكيم، وتكفل بهذه المهمة في العهد الأول عدد من الدعاة العرب الطارئيين على بلاد البربر، وارتبط نطاق هذا النوع من التعليم بجغرافية الفتح، ورسوخ مبادئه في المناطق المفتوحة. لكن بعد مرور قرابة قرنين من الزمان عن الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى، وتحديداً في مطلع القرن الرابع الهجري، حصل تطور نوعي بالغ الأهمية في تعاطي المغاربة مع اللغة العربية، حيث أمست لغة العلم والثقافة، ووعاء الفكر المغربي في

(٧٧) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩)، ص ١٥٠ - ١٥١؛ المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص ٢٠ - ٢٤، والتازي، ج ١، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٧٨) السبتى، ص ٢٧.

(٧٩) «ورقات عن حضارة المرينيين»، في: المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

العصر الإسلامي، وتزامن هذا التطور مع ظهور «العلم» في المغرب الأقصى، واجتهاد طائفة من الناس في طلبه بالرحلة إلى أمصاره، والجلوس إلى رجاله، وابتداء من هذا التاريخ أخذت الأعلام المغربية تظهر في معاجم المؤلفين ومصنفات التراجم. ومن الناحية المؤسساتية أفضى هذا التطور إلى اتساع بنى التعليم العربي التي كانت مقتصرة على الكتاتيب والجوامع، وظهرت إلى جانبها الرباطات والمدارس.

٣ - مقاومة الأمازيغية لنفوذ العربية أو محاولات تميز الإسلام

من القضايا الأساسية التي تتفرع من إشكالية لغة التعليم والهوية في المغرب الأقصى من منظور تاريخي هي قضية علاقة اللغة العربية باللغة الأمازيغية، ولعل السؤال المفتاح لمعالجة هذه القضية وتحليلها تحليلًا تاريخيًا معقولًا: هل سلّمت الأمازيغية بسهولة للغة العربية بالتعبير عن الإسلام والعلم، وأخلت لها الساحة حتى تكون لسانهما المبين في المغرب الأقصى؟

إن التمعن الهادئ في التفاصيل والأحداث التاريخية التي لها صلة بعلاقة اللغتين العربية والأمازيغية في المغرب الأقصى، يُظهر قدرًا كبيرًا من المقاومة التي أبدتها اللغة الأمازيغية للنفوذ الديني والثقافي للغة العربية، وهو ما لم ينتبه إليه معظم الدارسين الذين حكموا على الأمازيغية بالسلبية تجاه العربية. تجلت هذه المقاومة بشكل رئيس على هامش بعض الأحداث التاريخية الكبرى في تاريخ المغرب الأقصى التي اعتاد المؤرخون وغيرهم المرور عليها مرور الكرام، من دون أن ينتبهوا إلى دلالاتها الاستراتيجية التي تتعلق بإشكالية اللغة والدين في المجال المغربي، والتي لا تتجلى في ظاهر النص. ومن أهم هذه الأحداث: ظهور الديانة البرغواطية، وديانة حاميم الغماري.

من الأشياء الدالة التي لفتت انتباهنا في أثناء مراجعتنا حادثتي ظهور هاتين الديانتين، تشابههما الكبير في عدد من الأفكار من جهة، ومحاكاتهما الواضحة للديانة الإسلامية، فكلاهما صدّقا بما جاء به القرآن، والتزما التوحيد، ووضعا لأتباعهما شرائع متشابهة أحيانًا، ومتطابقة أحيانًا أخرى مع

ما جاء به الإسلام، من صلاة وصوم وقرآن، غير أن أئمة هاتين الديانتين حاولا تقديم تعاليمهما بلغة البربر. فصالح البرغواطي أمازيغي، يفهم غير لسان من السنة البربر، «عمل لهم كلامًا رتلّه بلغتهم وشرع فيه محابّه على نحلّتهم فهم يتدارسونه ويعظّمونه ويصلون به»^(٨٠). ويقول ابن حوقل الذي ألّف كتابه في عهدهم: «وفيهم الآن من يقرأ القرآن بغاية الاحترام، ويحفظ منه السور، ويتأول آياته على موافقته لكتابهم وقرآنهم»^(٨١)، وبالتالي فالتقاطعات الكبيرة والواضحة بين إسلام المغرب الأقصى في القرن الثاني الهجري، والنحلة البرغواطية كما شرحها المؤرخون الأول، والتسامح والقبول الذي تعامل به أتباعها مع الإسلام، تدل دلالة واضحة على أن البرغواطية ما هي إلا صيغة أمازيغية للإسلام، ويعزز هذا الاستنتاج ما ذكره البكري عن مشاركة صالح وأبيه في ثورة ميسرة الحقيير عام ١٢٢هـ^(٨٢)، كما أن أهم المصادر التي ساقّت لنا خبر برغواطة ألّفها عرب، منعهم جهلهم بالأمازيغية من التعرف إلى حقيقة البرغواطية، وعنهم نقل المغاربة، وعلى الرغم من هذا العيب، فإن ما نقلوه يعضد فرضيتنا كون البرغواطية مجرد ترجمة أمازيغية للإسلام العربي.

أما حاميم الغماري (ت. ٣١٥هـ) الذي ادعى النبوة بحسب الإيستوريوغرافيا العربية، فهو الآخر أمازيغي الأصل، من جبال غمارة المطلّة على البحر الأبيض المتوسط، وضع لأتباعه قرآنا بلسانهم الذي يفهمونه، ترجم البكري جُملاً منه، وفرض عليهم مجموعة من الفرائض تشبه ما جاءت به شريعة الإسلام مثل صيام سبعة وعشرين يوماً من رمضان وزكاة العشر والصلاة، مع اختلاف في القدر والطريقة... وأسماء أبنائه كلها عربية إسلامية، فكان له من الولد محمد وعبد الله وعيسى^(٨٣). وبالتالي، واستناداً إلى هذه التقاطعات الظاهرة بين الإسلام ونحلة حاميم،

(٨٠) ابن حوقل، ص ٨٢.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٨٢ - ٨٣؛ ابن عذارى المراكشي، ج ١، ص ٥٦ - ٥٧؛ البكري، ص

١٣٤ - ١٣٥، وابن خلدون، كتاب العبر، ج ٦، ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

(٨٣) البكري، ص ١٠٠ - ١٠١، وابن خلدون، كتاب العبر، ج ٦، ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

يمكن القول - أيضًا - إن بدعة هذا الأخير ما هي إلا نسخة أخرى أمازيغية للديانة الإسلامية في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع.

انطلاقًا من هذين المثالين، يبدو أن كلاً من نحلة برغواطة، و«نبوءة» حاميم، هو قراءة أمازيغية للإسلام في هذا الظرف، ذلك أن دعاة هاتين النحتين لم يرفضوا العقيدة الإسلامية في أبعادها التوحيدية، ولم يشككوا في صدق رسالة (محمد ﷺ)، كما تؤكد الأخبار التي وصلتنا عنهم، لكنهم تمثلوا الرسالة المحمدية بلغتهم المحلية، ووفق معطيات بيئتهم الثقافية^(٨٤). موقف الأمازيغ في هاتين الناحيتين من المغرب الأقصى لم يكن موقفاً مدروساً، واختياراً واعياً، بل نتيجة منطقية وتاريخية لفتور الدعوة الإسلامية في المغرب الأقصى جملة ابتداء من المئة الثانية، وانقطاعها تمامًا عن المناطق التي ظهرت فيها هاتان البدعتان (غمارة وتامسنا)؛ إذ بعد الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى (٨٦ هـ) بمدة قصيرة، اندلعت ثورة البربر (١٢٢ هـ) التي أخرجت المغرب من دار الخلافة الأموية، وهو ما لم يُنح للإسلام الصحيح فرصة التغلغل في أحشاء بلاد البربر الحديثة العهد بالجاهلية.

صفوة القول، إن البربر في بعض مجالات المغرب الأقصى حاولوا أن يجعلوا الأمازيغية لغة الإسلام، وترجموا معاني القرآن إلى لغتهم، وصلّوا بها، ولا أدلّ على ذلك من النصوص التي احتفظ بها المؤرخون الذين نقلوا خبر الديانتين، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل بسبب معارضة الفقهاء العرب ومن والاهم من البربر، وجرى القضاء عليها عسكرياً.

هكذا استطاعت اللغة العربية احتكار الوظيفة الدينية بشكل تام في المغرب الأقصى، بعد القضاء على محاولات تمزيغ الإسلام، وذلك مع

(٨٤) حار المؤرخون في وصف وتجنيس الديانة البرغواطية؛ منهم من ربطها بالخوارج، ومنهم من ربطها بالآثار المسيحية واليهودية... والواقع أنها إسلام بلغة البربر، إسلام القرن الثاني الهجري في المغرب الأقصى حيث فتور الدعوة، وضعف الصلة بالمصادر الأصلية للإسلام بالشرق. انظر: أحمد الطاهري، المغرب الأقصى ومملكة بني طريف الرغواطية (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٥)؛ محمد الطالبى وإبراهيم العبيدي، الرغواطيون في المغرب (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩)؛ امحمد جبرون، الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس هجري (الرباط: دار أبي رقرق، ٢٠٠٨)، ص ١٧٩، و G. Marcy, *Le Dieux des Abadites et de Bargwâta* (Hespéris: T. XXII, 1953), pp. 3-56.

حلول القرن الخامس الهجري، ونتيجة ذلك استقلت - أيضاً - بالوظيفة الثقافية منذ أن ظهر العلم بالمغرب الأقصى، حيث أمست لغة العلوم الشرعية والأدبية والعقلية.

من الظواهر الأخرى ذات الصلة بعلاقة العربية بالأمازيغية في المجال المغربي خلال العصر الوسيط، إقدام مهدي الموحدين محمد بن تومرت على تأليف كتاب التوحيد لجمهور الموحدين من البربر باللسان البربري، وترجم معه طائفة أخرى من تعاليمه الدينية إلى الأمازيغية، وقلده في ذلك مع شيء من المبالغة خليفته عبد المومن بن علي، وكان الهدف من هذه الخطوة هو إعادة بناء معاني التوحيد لدى المسلمين الأمازيغ، وتلقينهم مبادئ التدين الصحيح^(٨٥).

استقبل المغاربة بمختلف طبقاتهم الخطوة التي أقدم عليها الموحدون بإيجابية، ولا نعلم أحداً استنكرها من المتقدمين والمتأخرين، كما ساهمت بشكل فاعل في ترسيخ الإسلام في بلاد البربر، وبخاصة في جبال درن (الأطلس الكبير) وسوس، ولعل السبب الرئيس وراء هذا الموقف الإيجابي هو سلامة المشروع الموحيدي من الآفات التي وقعت فيها المشاريع السابقة؛ ففي التجربتين السابقتين البرغواطية والغمارية كانت الغاية - سواء أدركت أم لم تدرك - تمزيغ الإسلام، وابتداع إسلام أمازيغي قرآناً وسنة، أما في التجربة الموحدية فالأمر لا يتعدى الرغبة في تمزيغ التدين، أي جعل الأمازيغ يمارسون الإسلام بشكل صحيح.

استطاع التفاعل التاريخي بين العربية والأمازيغية في المغرب الأقصى على مدى خمسة قرون تقريباً، وحتى العهد الموحيدي، بلوغ نوع من التوازن الوظيفي، سمح للمغرب الأقصى بالنمو الديني والثقافي والحضاري، فاللغة العربية استقلت بالوظيفة الدينية باعتبارها لغة القرآن والسنة النبوية، وبناء عليها استقلت بالوظيفة العلمية، أما اللغة الأمازيغية

(٨٥) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ١٠٩ - ١١٠؛ المنوني، العلوم والآداب والفنون، ص ٢٧ - ٢٨، وليفي بروفنسال، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، ١٠ ج (الرباط: مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٤١)، ص ١٣١ - ١٣٢.

فأجهضَ طموحها المبكر لتكون لغة الدين، وأنكرَ سعيها لتكون لغة الرسالة، وبالمقابل اعترف لها بالنفوذ في المجال التربوي.

٤ - تأثير اللغة العربية في هوية المغرب الأقصى

كان المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي موزعًا بين ثلاثة أقاليم هوياتية: الهوية الأمازيغية - الوثنية التي سادت مغرب الصحراء؛ والهوية اللاتينية - النصرانية التي سادت المغرب المفتوح (الشمال)، وبشكل نسبي مغرب الوسط؛ والهوية العبرية - اليهودية التي تخللت المغارب الثلاث، وكما هو واضح من خلال هذه التسميات كانت لكل واحد من هذه الكيانات الهوياتية لغته الخاصة. يعكس هذا الانقسام تأثيرات ثقافية وحضارية متباينة، بعضها آتٍ من الشمال، وبعضها الآخر وافد من الجنوب والشرق. ولم تكن التجزئة الهوياتية في المغرب الأقصى قبيل الفتح الإسلامي مجرد تجزئة دينية وثقافية، بل تعدتها إلى المجال السياسي، حيث كان لكل هوية انحياز سياسي واضح، فالمغرب المفتوح خضع للهيمنة البيزنطية، ومغرب الصحراء خضع للحركات الاستقلالية الأمازيغية (القبلية)، بينما مغرب الوسط كان يتأرجح بين القوتين الأمازيغية والنصرانية.

لكن دخول الإسلام إلى المنطقة غيّر من الدينامية التاريخية في شمال أفريقيا، وخلخل الاستقرار الهوياتي القائم على التجزئة، وعاشت في ظلها المنطقة لقرون، فاعتناق البربر الإسلام في أواخر المئة الأولى للهجرة، والتحاقهم بتاريخه، غيّر الكثير من عوامل معادلة الهوية في المغرب الأقصى، وعلى رأس هذه العوامل: الدين واللغة.

أدى إسلام المغاربة إلى قلب جذريّ في معادلة الهوية الدينية، حيث أزيحت الوثنية والمسيحية من المجال المغربي بصفة شبه كلية، وعوّضا بالإسلام. ومن الحاجات الثقافية المستجدة في هذا الظرف التاريخي، التي واكبت الفتح الإسلامي، الحاجة إلى التعليم الإسلامي. إذ كان المسلمون الجدد بحاجة إلى بلاغ وبيان، حتى يتشبعوا بمعاني الإيمان، ويخرجوا من نفق الجاهلية إلى رحابة الإسلام، ومن ثم ظهر في المغرب الأقصى مجموعة من الدعاة والمعلمين، ونشأت مجموعة من المجالس والكتاتيب التعليمية.

في هذا السياق، دخلت اللغة العربية إلى المجال الثقافي المغربي باعتبارها لغة القرآن والدين الجديد، واتسع استعمالها باتساع دائرة الإسلام. ورسخت مكانة العربية باعتبارها لغة دين، بعدما قُضيَ نهائيًا على المحاولات المحلية لتمزيغ الإسلام التي قام بها كل من البرغواطيين وحميم الغماري. غير أن نفوذ العربية لم يقف عند هذا الحد، بل سرعان ما تحوّلت إلى لغة «علم»، انسجامًا مع النمو الحضاري الذي عرفه الكيان الإسلامي، وتأثرًا به، حيث أصبحت العربية لغة الفقه وعلوم القرآن وعلوم اللغة... ومما يدل على قيمة هذا التطور النوعي في تعاطي المغاربة مع اللغة العربية وأهميته هو تداولها العلمي من طرف أتباع الديانات الأخرى وبصفة خاصة اليهود.

من ثم، مكنت الدينامية التاريخية الحديثة المغرب الأقصى من هوية جديدة، جاءت حصيلة تفاعلات تاريخية، استغرقت على الأقل ثلاثة قرون، قبل أن تفصح عن ذاتها. وتجلت هذه الهوية في جملة الثوابت التي أفرزها التطور الصعب، والعنيف أحيانًا الذي مر به المجال المغربي، وصمدت أمام الهزات التاريخية الكبرى، ومن أهم هذه الثوابت: الإسلام، واللغة العربية، والتراث الثقافي والحضاري العربي، والوحدة السياسية.

باستحضار نسق الهوية التي كانت سائدة قبل الفتح، وتلك التي جاءت نتيجة مخاضاته، يُطرح السؤال التالي: هل كان للغة العربية - باعتبارها لغة تعليم - دور في إحداث هذه الثورة الهوياتية، وصوغ الهوية الجديدة؟ أو بعبارة أخرى، ما التعديلات التي طاولت بنية الهوية، والتي ترجع لعامل اللغة؟

إن اللغة العربية من حيث هي لغة أولاً، ولغة تعليم ثانيًا، أتاحت لها الظروف التاريخية التي حملتها إلى المغرب الأقصى، والوظائف الحيوية التي اضطلعت بها منذ دخولها إلى هذا البلد، التأثير بقوة ووضوح في بنية الهوية وأوصافها، وتتجلى أهم هذه التأثيرات في: تحول العربية، بحكم أدوارها، وخصوصية علاقتها بالدين إلى هوية؛ صبغ الثقافة والحضارة المغربيتين بالطابع العربي؛ المساهمة في بناء الوحدة السياسية للمغرب الأقصى وتكوين مفهوم الأمة.

- ارتقاء العربية إلى لغة هوياتية: أمست اللغة العربية بعد اندماجها في

النسيج الثقافي المغربي، ونتيجة التفاعلات التاريخية التي مسّتها على امتداد أربعة قرون تقريبًا لغة هوية، تتجاوز أدوارها وفوائدها الأدوار التقليدية التي تضطلع بها عادة «لغة التعليم»، وفي مقدمها الدور التعليمي الوظيفي، إلى «الدور الهوياتي الذي يجعل اللغة رمزًا من رموز الذات، يدخل في تعريفها وتحديدها. فالمغاربة في بداية الأمر لم يتعاملوا مع اللغة العربية باعتبارها لغة مقدسة، ولا أدلّ على ذلك، محاولات الاستغناء عنها، وتعويضها بالأمازيغية في تلقي العقيدة، لكنها ونتيجة ارتباطها بالدين وتحديدًا بالقرآن الكريم اكتسبت نوعًا من القدسية أعلنت من شأنها بين المغاربة. فالذات المغربية أو الهوية المغربية بعد انصرام القرون الأربعة الأولى لا يكتمل وصفها وتعريفها من دون اللغة العربية، حيث أمت جزءًا حيويًا منها، ولا ترجع هذه المكانة التي باتت تتبوّأها العربية في المغرب الأقصى إلى دورها التعليمي أو التواصلية، بل إلى دورها الديني، فينذر أن تجد مغربيًا راشدًا بعد هذه المدة لا يحفظ شيئًا من القرآن والحديث وكلام العرب.

- صبغ الحضارة المغربية بالطابع العربي: انتقل المغرب الأقصى بعد إسلامه من نسب حضاري إلى آخر، حيث تخلى عن «الحضارة اللاتينية» التي أخذت في الأفول، حتى قبل مجيء الإسلام إلى هذه الأرض، وانخرط في الدينامية التاريخية والحضارية التي أطلقها الإسلام، وأدى هذا الانخراط الفاعل إلى ظهور نواة حضارة عربية - إسلامية في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام في المغرب الأقصى، ساهمت اللغة العربية بقوة في تخلّقها وتحديد أوصافها.

أطلق الفتح الإسلامي للمغرب الأقصى متتالية تاريخية جديدة ابتدأت باعتناق البربر الإسلام، وانتهت بظهور حضارة فنية وراقية، فنتيجة اعتناق البربر الإسلام، واستجابة للحاجات الدينية الملحة للمسلمين الجدد في الشمال الأفريقي ظهر «العلم» في أوساط المغاربة، ولم يكن يعني في البداية أكثر من حفظ القرآن الكريم، وطائفة من الروايات المسندة إلى أئمة في المشرق، مهد الإسلام، والحافظ لإرثه بعد انقطاع الرسالة. ومع تقدم السنين تشعبت مسائل هذا العلم، وتفرعت عنه علوم أخرى، من أبرزها: علوم القرآن، وعلوم الحديث، والسيرة والتاريخ، وأصول الفقه والدين،

وعلوم اللغة. ولم يتخلف المغاربة عن هذا التقدم الحاصل في المشرق، حيث نقلوا هذه العلوم إلى بلادهم، ونشروها بينهم، وفي بعض الحالات نبغوا فيها وتقدموا على أصحابها. من ناحية أخرى، اقتضى الاجتماع البشري، وتطور أحوال العمران، ظهورَ علومٍ أخرى جديدة مثل الحساب والمنطق والطب والفلسفة... التي ستعزز بنیان الحضارة الإسلامية في ربوع المجال الإسلامي، بما في ذلك المغرب الأقصى. انطلاقاً من هذا الوصف، تكون الحضارة المغربية من نسل الحضارة الشرقية، ومثالاً ناجحاً لزواج حكمة الشرق بتجربة الغرب (المغرب الأقصى).

هكذا، جعلت التحولات الثقافية والحضارية الكبرى التي مر بها المغرب الأقصى بعد الفتح الإسلامي، وملابساتها التاريخية التي أفضنا في الحديث عنها سابقاً، اللغة العربية تحتكر التعبير الرمزي عن الحضارة المغربية، وصبغتها بصبغتها التي لا تُمحى، فمنذ القرون الأولى حسم المغرب الأقصى أمره، وأمسى عربي الثقافة والحضارة.

- تكوين مفهوم الأمة: من أوضح أوصاف المغرب الأقصى قبل دخول الإسلام الانقسام والتجزئة الثقافية والسياسية، إذ لم ينعم الشعب المغربي في ظل الحضارات التي تعاقبت عليه بالوحدة الثقافية والسياسية، فعلى سبيل المثال شكلت المغارب الثلاث (الشمال، والوسط، والصحراء) في الفترة السابقة لدخول الإسلام وحدات بشرية، ثقافية وسياسية متميزة، يسعى كل منها إلى الظهور بمظهر الأمة، وتبعاً لذلك لم يتذوق المغاربة لذة الإحساس بوحدة الانتماء، والأصل، والمصير، التي تشكل الأساس النفسي لمفهوم الشعب الواحد، إلى درجة يصبح معها السؤال عن وجود الشعب المغربي قبل الإسلام سؤالاً وجيهاً.

استطاع الإسلام بعد وفوده إلى بلاد البربر، ورسوخه فيها، أن يوحد بين أطراف المغرب الأقصى، دينياً، وثقافياً، وحضارياً، ومن ثم إعادة بناء مفهوم الشعب المغربي المنهار بسبب التوغلات الحضارية في العصور القديمة. في هذا الاتجاه، ساهمت اللغة العربية بقوة وفاعلية في الوصل بين أجزاء الكيان المغربي، وتكوين مفهوم الأمة على مجموع تراب المغرب الأقصى، فاحتكارها التعبير الرمزي عن الثقافة والحضارة المغربية بمختلف

روافدها في الشمال والوسط والصحراء، إضافة إلى كونها لغة الدين، جعل منها إحدى خصائص الأمة المغربية الرئيسة ومقوماتها.

منحت اللغة العربية في العصر الإسلامي شعب المغرب الأقصى وحدة ثقافية وحضارية، لم تُتَح له من قَبَل في إطار التجارب الحضارية التي مر بها، حيث أمست العلوم الدينية والدينية، والآداب المكتوبة... ومعظم مظاهر الحضارة الأخرى، لا يعوق تداولها عائق لغوي أو ثقافي في المغرب الأقصى من ساحل المتوسط إلى تخوم الصحراء. ومن ناحية أخرى، أمست هذه العلوم تعبيرًا عن الجهود الفكرية للإنسان المغربي في أنحاء المغرب الأقصى كلها، ومظهرًا من مظاهر نبوغه وعبقريته الفردية والجماعية. وأثمرت هذه الوحدة الثقافية والحضارية وحدة شعورية أعمق منها، جعلت مفهوم الشعب المغربي أمرًا ممكنًا، بل حقيقة ملموسة وجدانيًا وثقافيًا وحضاريًا.

ساهمت اللغة العربية - باعتبارها لغة تعليم أولاً - بشكل حاسم في صوغ الهوية المغربية، وصبغها باللون العربي، وتجلى هذا الأمر بوضوح في: ارتقاء اللغة العربية إلى لغة هوياتية، نظرًا إلى علاقتها الخاصة بالدين؛ وإضافتها الطابع العربي على المنجز الثقافي والحضاري المغربي؛ وتعزيز مفهوم الأمة. وساعدت الظروف التاريخية التي مرّ بها المغرب الأقصى على مدى ثلاث قرون - بدءًا من دخول الإسلام - في فسح المجال أمام التأثير الهوياتي للغة العربية، بعدما أفضيت من طريقها أهم محاولات تمزيغ الإسلام.

كان لهذا التحول التاريخي العميق الذي مس سائر أنحاء المغرب الأقصى: السياسية والثقافية والحضارية انعكاسات استراتيجية كبيرة على مستوى نظرة المغاربة إلى أنفسهم، وطريقة إدراكهم لذاتهم، فمنذ ذلك الحين (القرن الرابع الهجري) أمسى الإنسان المغربي - ثقافيًا وحضاريًا - عربي الانتماء، وأمسى بلده جزءًا من جغرافية الوطن العربي، وتساوى في هذا الأمر الأمازيغ مع العرب.

تحقق المغرب العربي اليوم، أي المغرب الأقصى، في الواقع وفي أذهان الناس بالمعنى السالف الذكر بفضل الانفتاح والمرونة التي أبدتها

الفاعليات العربية تجاه الأمازيغية في القرون الأولى بعد الفتح، بحيث لم تطمح لإقصائها، أو القضاء عليها، بل على العكس من ذلك، احترمت وظائفها الاجتماعية والتواصلية احترامًا تامًا، وتعايشت معها، واقتصرت العربية على الوظائف الجديدة فقط التي لم تكن من صميم مهمات الأمازيغية، وعلى رأسها الوظيفة الدينية، والوظيفة العلمية والثقافية، ومن ثم استمرار مفهوم المغرب العربي في المستقبل مشروط باحترام هذا التوافق التاريخي الذي تشكل منذ عشرة قرون.

ثانيًا: الهوية العربية وتحدي الفرنسية من أواخر التاسع عشر إلى عام ١٩٧٠

١ - استخدام الفرنسية في التعليم: البدايات والتطور

إن قصة اللغات الأجنبية في المغرب من الناحية التاريخية شديدة الصلة بالاجتياح الرأسمالي للعالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر، ولا تنفصل عنه، فدخلت هذه اللغات إلى المجال التداولي المغربي سوغته إرادات نهضوية وأخرى إمبريالية. سنحاول في هذا القسم متابعة قصة اللغات الأجنبية في المغرب الأقصى، وتحديدًا اللغة الفرنسية في أطوار ثلاث: قبيل الحماية، وفي أثنائها، وبعدها.

أ - اللغة الأجنبية (الفرنسية) في المغرب الأقصى قبيل الحماية

برزت الحاجة إلى اللغات الأجنبية في المغرب الأقصى بشكل ملحّ خلال القرن التاسع عشر، وتزامن ذلك مع تصاعد الضغط الرأسمالي على بلدان جنوب المتوسط، بأشكاله المختلفة: العسكرية والسياسية والدبلوماسية، فقبل هذا التاريخ لم تكن المعطيات الداخلية للمغرب الأقصى، ولا مستوى علاقاته الخارجية تفرض تعلم اللغة الأجنبية، لكن مع حلول القرن التاسع عشر، انقلب الوضع، وتزايدت حرارة الاحتكاك مع الغرب الرأسمالي المتربص بجنوب المتوسط، الأمر الذي فرض على القادة السياسيين المغاربة الالتفات نحو اللغة الأجنبية وإدماجها في نوع من «التعليم الرسمي»، تلبية لبعض الضرورات النهضوية والسياسية والدبلوماسية.

اقتصر تدريس اللغة الأجنبية في المغرب الأقصى بدايةً على البعثات الطلابية التي كانت توجهها المملكة المغربية إلى البلدان الأوروبية المختلفة لاستكمال دراستها في عدد من التخصصات العلمية الحديثة مثل الهندسة المدنية والعسكرية والتقنيات... ومن أشهر المدارس التي اشتهرت بتعليم اللغات، أو الألسن كما كان يُصطلح عليها في تلك المرحلة، المدرسة الحسنية في طنجة التي أسسها السلطان الحسن الأول (ت. في عام ١٣١١هـ)، «والغالب أن هذه المدرسة كانت تكميلية، حيث يقع بها إعداد طلبة مدرسة المهندسين، الذين سيذهبون لإكمال دراستهم بأوربة»^(٨٦). وتحقيقاً لهذه الغاية كانت تلقن مبادئ اللغات لطلبة البعثة قبل مغادرتهم التراب المغربي^(٨٧).

إلى جانب المدارس التي أنشأتها الدولة المغربية لتعليم اللغات، ظهرت مدارس أخرى في أواخر القرن التاسع عشر، مرتبطة بالإمبريالية الغربية، وتخدم أهدافها، وأهم هذه المدارس مدارس البعثة الفرنسية التي بلغ عددها قبيل الحماية ثمانية، كانت تستقبل الأطفال المغاربة من أبناء «المحميين» والعاملين في القنصليات الفرنسية، إضافة إلى قلة من أبناء الفقراء والأعيان، وكانت اللغة الأجنبية، وبخاصة الفرنسية إحدى المواد الرئيسة في هذه المدارس^(٨٨).

على الرغم من شح المعلومات حول مكانة اللغة الأجنبية ونفوذها في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى عهد الحماية الذي بدأ في عام ١٩١٢، فإن ما توافر لدينا يدل دلالة قوية على أن وظيفة اللغة الأجنبية في المغرب الأقصى في خلال هذا العهد كانت دبلوماسية بالدرجة الأولى، ولم تتجاوز حدود التواصل الدبلوماسي بين

(٨٦) محمد المتوني، مظاهر يقظة المغرب، ٢ ج، ط ٢ ج (الدار البيضاء: منشورات المدارس، ١٩٨٥)، ص ١٤٧.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٦٧؛ إبراهيم حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية، ط ٢ (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٩٩٤)، ص ٣٧، وخالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر، ط ٢ (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧)، ص ٤٦٧.

(٨٨) Fouzia Benzakour, Driss Gaadi et Ambroise Queffelec, *Le Français au Maroc: Lexique et Contacts de Langue* (Bruxelles: De Boeck et Larcier s. a., 2000), p. 44.

الإبالة الشريفة والدول الأجنبية المتربصة بها مثل فرنسا وإنكلترا وإسبانيا وألمانيا... وحتى أولئك الطلبة الذين أرسلوا إلى أوروبا ليتمكنوا من أسرار التقدم العلمي والحضاري ويعودوا بها إلى بلادهم، استغل فيهم المغرب جدارتهم اللغوية فقط، واشتغل معظمهم مترجمين ودبلوماسيين، وقلة قليلة منهم هي التي اشتغلت في تخصصاتها^(٨٩).

لم تستطع اللغة الأجنبية قبل الحماية أن تفرض نفسها في المجال العلمي والثقافي في المغرب الأقصى، وتتحول إلى لغة العلم والثقافة الحديثة، على الرغم من احتكارها علوم الوقت، ولا أدل على ذلك من حركة الترجمة العلمية من اللغة الأجنبية، وبخاصة الفرنسية إلى العربية التي عرفتها مملكة مراكش في هذا العهد، والتي ترمز إلى رفض الوسط المغربي أي دور علمي أو ثقافي للغة الأجنبية^(٩٠). وعلى الرغم من ضيق المجال التداولي للغة الأجنبية في المغرب الأقصى في هذا العهد، كانت الفرنسية قبيل الحماية اللغة الأجنبية الأولى على مستوى التدريس^(٩١).

ب - اللغة الفرنسية في أثناء الحماية

بعد فرض معاهدة الحماية على المغرب الأقصى في عام ١٩١٢، واستفراد فرنسا بالشأن المغربي، تغير الوضع اللغوي في المغرب رأساً على عقب، وتبنت سلطات الاحتلال منذ البداية سياسة لغوية مدروسة ومنسقة، أمسست بموجبها اللغة الفرنسية إحدى أدوات السيطرة والنفوذ الاستعماري. ما هي خريطة انتشار اللغة الفرنسية في عهد الحماية؟ وما هي الوظائف الجديدة التي اكتسبتها؟

كان المحتل الفرنسي يدرك جيداً العلاقة الوطيدة بين اللغة العربية ونسق الهوية المغربية المستند إلى عناصر الإسلام والعربية ووحدة الأمة، ومن ثم فالتعريب بالنسبة إلى سلطات الحماية كان يعني مزيداً من الأسلمة، ووحدة الأمة المغربية، وبالتالي شدة في المقاومة، ورفضاً للأجنبي، ولهذا عمل منذ

(٨٩) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ص ١٦٨ و ١٨٥ - ١٨٦، وحركات، ص ٣٩.

(٩٠) المنوني، مظاهر يقظة المغرب، ج ١، ص ١٩٢ - ٢٠٥.

Benzakour, Gaadi et Queffelec, pp. 37.

(٩١)

البداية على محاربة العربية، وحرمانها من وسائل الانتشار والنفوذ، وبالمقابل عمل على توسيع التعليم الفرنسي باعتباره ضماناً لاستقرار الحماية ومشاريعها الاستغلالية. ولم تكن هذه السياسة العدائية تجاه العربية المشجعة للفرنسية سرّاً يتداول في دهاليز الحماية ومؤسساتها الإدارية، بل تجلت بوضوح في تصريحات ومقالات الأقطاب السياسية والثقافية للاستعمار الفرنسي في المغرب، ونورد في ما يلي أقوى هذه التصريحات التي تكشف النقاب عن النوايا الخبيثة للاستعمار في المغرب اتجاه الهوية المغربية باستعمال السلاح اللغوي، جمعها وترجمها إلى العربية عبد العلي الودغيري في كتاب عنونه الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب:

- يقول الجنرال هوبير ليوتي (*) (H. Lyautey) في دورية موجهة إلى ضباطه في الاستخبارات: «إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج إطار الإسلام. ومن الناحية اللغوية، علينا أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية»^(٩٢).

- يقول موريس لوغليه (**)(Maurice le Glay): «كان ضباطنا ورجال إدارتنا يعتبرون دائماً، نتيجة خطأ مأسوف عليه وتأثير سيئ لاستشراق متحذلق، أن من المناسب مخاطبة الجميع، من غير تمييز في شمال أفريقيا باللغة العربية [...] أما نحن فيجب أن نرى في هذا خطأ مرعباً قد يقود البربر إلى إسلام تام ونهائي، وإلى أن توجد بالمغرب، وعلى يدنا نحن [...] كتلة إسلامية منسجمة لا نظير لها... ذلك لأن الذي يسلم يظل على إسلامه، ولأننا رغم كل احترامنا للإسلام لا يمكننا نحن أن نقوم له بدور الطلائع [...] فإذا تعلم المغربي المتبربر اللغة العربية، لن يكون ذلك على أيدينا. إننا لا ندرى بكل تأكيد ماذا سيفعل المستقبل بهذه الكتل

(*) ليوتي: أول مقيم عام فرنسي في المغرب، أرسى قواعد السياسة الاستعمارية بهذا البلد.

(٩٢) عبد العلي الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب، كتاب العلم (الرباط: الشركة المغربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣)، ص ٨٦.

(**) موريس لوغليه: ضابط للاستعلامات الفرنسية بالمغرب، والمراقب المدني لمنطقتي عبدة ودكالة.

المتحمسة النشيطة، ولكن هم قضيتنا العميق والمشروع يفرض أن يتم تطوير سكان الجبال باللغة الفرنسية المعبرة عن فكرنا. سيتعلم السكان البرابرة الفرنسية، إذًا، وسوف يحكمون بالفرنسية»^(٩٣).

- يقول فيكتور بيكيه^(*) (Victor Piquet): «هؤلاء السكان يمكنهم، بل يجب عليهم في وقت قصير، أن يصبحوا فرنسيين لغة وروحًا. ولو أن شخصًا قام بزيارة الفلاحين في «حاحا» [...] ولو أن أحدًا رأى سكان الجبال رغم عزلتهم في الأطلس الكبير [...] لما ساوره الشك في أن كل بلاد الشلوح [...] ستصبح بعد أعوام قليلة، مقاطعة فرنسية حقيقية»^(٩٤).

إجمالًا، إن سدنة الاستعمار الفرنسي وأركانه في المغرب الأقصى - كما تدل هذه العينة من التصريحات - كانوا يدركون تمامًا طبيعة العلاقة القائمة بين الهوية ولغة التعليم، وفي السياق نفسه كانوا يدركون أن المقاومة الشديدة التي واجهتهم في سائر أنحاء المغرب، في الجبال والسهول والصحراء، سببها الهوية العربية - الإسلامية التي يمتاز بها الشعب المغربي، لهذا عملوا على استهداف هذه الهوية بتفكيكها، وإضعافها من خلال لغة التعليم، حتى يستتب لهم الأمر، ويصفو لهم الجو.

استنادًا إلى هذه القناعة خطط الفرنسيون للتعليم في المغرب الحديث، وأنشأوا المدارس، ووضعوا البرامج... فبعد توقيع معاهدة الحماية في آذار/ مارس ١٩١٢ اتجهت سلطات الحماية إلى تأسيس التعليم الحديث، الذي يعكس الرؤية الاستعمارية، ويحقق مصالحها من جهة، ويتجاوز التعليم التقليدي - الإسلامي الذي كان سائدًا.

انقسم هذا التعليم إلى قسمين:

- تعليم أوروبي: اقتصر على أبناء الجاليات الأوروبية المستقرة في المغرب، ولا يسمح بولوجه للأطفال المغاربة^(٩٥)؛

(٩٣) الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية، ص ١٠٣.

(*) فيكتور بيكيه: أحد المثقفين الفرنسيين المتحمسين للسياسة البربرية.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١٤٧ - ١٤٨.

Benzakour, Gaadi et Queffelec, p. 38.

(٩٥)

- تعليم فرنسي: استهدف الناشئة المغربية، وانقسم هو الآخر إلى فروع عدة، من أهمها: مدارس أبناء الأعيان؛ المدارس الفرنسية - الإسلامية (العربية)؛ المدارس الفرنسية البربرية؛ والتعليم الشعبي بشقيه القروي والحضري والمهني^(٩٦).

إذا كان التعليم الأوروبي بحكم الفئة المستهدفة لم يهتم بالثقافة المغربية واللغة العربية، وكان يُدرّسها باعتبارها لغة أجنبية فقط، مثلها مثل الإنكليزية^(٩٧)، فإن التعليم الفرنسي الذي يستهدف أساساً أبناء المغاربة، لم يختلف عنه كثيراً، وحاول بكل الوسائل إضعاف اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وفي المقابل تعزيز مكانة اللغة الفرنسية، فعلى سبيل المثال: مدارس أبناء الأعيان كانت تُدرّس تلامذتها القرآن والعربية، أما بقية المواد فكانت تدرس بالفرنسية، وبالتالي كان الغلاف الزمني لمادتي القرآن والعربية أصغر بكثير من المواد المفرنسة^(٩٨)؛ والمدرسة الفرنسية - الإسلامية كانت تُدرّس اللسانيات الإسلامية والعربية في ١١ ساعة، بينما تُدرّس المواد الفرنسية (اللغة والعلوم) في ٢٠ ساعة^(٩٩).

غير أن أرقى مظاهر الإقصاء الثقافي والتعصب ضد اللغة العربية والإسلام تجلّى في المدارس الفرنسية - البربرية، المتمركزة في المناطق البربرية (الأطلس) التي ألغت المواد العربية كلها من منهاجها الدراسي، وشطبت كل إحالة إلى الإسلام، ودرّست المواد كلها باللغة الفرنسية^(١٠٠). وإمعاناً في التعصب، لقت اللغة البربرية بالحرف اللاتيني، واستمراراً

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٤٥ - ٤٩.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٤٥.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(١٠٠) يشير محمد شفيق إلى أن العربية كانت تُدرّس في مدرسة أزرو خارج الحصص العادية وفي ظروف مزرية جداً، وسيتحسن الاهتمام بالعربية في هذه المدرسة، وفي المقابل سيتراجع تلقين الأمازيغية مع اقتراب تاريخ الاستقلال، ولعل هذا التحول في نظرنا يرجع إلى الضغط القوي الذي مارسه الحركة الوطنية، خصوصاً بعد أزمة الظهير البربري الذي استهدف تمزيق الوحدة الثقافية المغربية... انظر: شفيق، ص ٤٨.

لهذه السياسة، وحتى تحوّل بين المغاربة الأمازيغ وبقية أفراد الشعب المغربي، أُسّست مدرسة أزرو (Collège d'Azrou) في عام ١٩٣٤، ليستكمل فيها أبناء الأمازيغ المتخرجون من المدارس البربرية دراستهم من دون الحاجة إلى الالتحاق بالمدارس «الإسلامية» في المناطق الأخرى^(١٠١).

أما في مجال التعليم العالي فلم تختلف الوجهة كثيراً، حيث حرصت سلطات الحماية الفرنسية على ربط خلايا البحث العلمي التي أسستها في المغرب الأقصى، سواء في مجال الإنسانيات أم العلوم الطبيعية بأهدافها، ولم تتح في هذا السياق للغة العربية فرصة المشاركة العلمية المقدرة، ومن أبرز المؤسسات البحثية التي أنشأها الاحتلال الفرنسي في المغرب «معهد الدراسات العليا المغربية (H.E.M) (١٩٢٠) الذي بعد تطورات مختلفة استقر عمله على التدريس والبحث العلمي، واستهدف توسيع المعارف باللغات المحلية والجغرافيا والتاريخ... غير أنه لم يرق إلى مستوى مؤسسة جامعية. ومن أبرز منشورات هذا المعهد المجلة المغربية الفرنسية الشهيرة هسبيرس (Hespéris)^(١٠٢).

تفطنت الحركة الوطنية المغربية للأخطار التي بات يشكلها التعليم الفرنسي على الجماعة الوطنية المغربية وهويتها، وحاولت معارضة سياسة سلطات الحماية في هذا المجال، وفضح مؤامراتها على اللحمة الوطنية في الصحافة والمنتديات السياسية، غير أن أبرز خطوة قامت بها في هذا الاتجاه هي إقدامها على تأسيس المدارس الحرة التي تحولت بسرعة شديدة إلى حركة مقاومة تربوية للسياسة الفرنسية في المغرب، وفي هذا الصدد يقول أحد أقطاب هذه الحركة، هو محمد حسن الوزاني: «فكرنا في تأسيس مدارس حرة تتعلم فيها الناشئة أصول الدين، والعربية، والعلوم، زيادة على القرآن، وذلك بأساليب جديدة [...] وكل هذا على نسق المدارس العربية الفرنسية لأبناء المغاربة، وكان في إحداث علم المدارس تطوير كبير، وتجديد أساسي لكتاتيب القرآن، كما كان فيه رد

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٣٩ - ٤٠.

فعل ضد طغيان التعليم الفرنسي على الديني والعربي في المدارس المغربية الرسمية»^(١٠٣).

إجمالاً، إن التعليم الفرنسي على الرغم من محدوديته التي تتجلى في الأعداد القليلة للأطفال الذين استفادوا منه، والنفقات الهائلة التي رصدتها سلطات الاحتلال لتحقيق أهدافه، وعلى الرغم من مقاومة الحركة الوطنية له، استطاع تكوين نخبة حديثة مفرنسة تمركزت في الإدارة بالدرجة الأولى، أمسق قبيل رحيل الاحتلال، وبعد رحيله، المنافع القوي عن المصالح الثقافية الفرنسية في المغرب، والمدافع الصلب عن الازدواجية اللغوية في المغرب أمام النخبة المعربة المعارضة لها.

من الناحية الوظيفية، استطاع التعليم الفرنسي أن يعيد توزيع الوظائف بين اللغات الحية في المغرب (الفرنسية والعربية)، حيث أصبحت اللغة الفرنسية لغة الإدارة والاقتصاد، ولغة العلم والثقافة الحديثة، بعدما كانت قبل الحماية تقتصر فقط على الوظيفة الدبلوماسية، بينما تراجع دور العربية في هاته المجالات وأمسق لغة دينية تراثية مفصولة عن الواقع، ترتبط بالأنشطة التقليدية فقط^(١٠٤).

ج - اللغة الفرنسية بعد الحماية

بعد أكثر من أربعين سنة من الفرنسة (١٩١٢ - ١٩٥٦) والتهميش الوظيفي للغة العربية، رفعت الجماعة الوطنية المغربية شعار التعريب الذي عكس حجم الحقن على السياسة اللغوية الفرنسية في المغرب الأقصى، وحاولت العربية استرجاع وظائفها المسلوقة منها في مجالات الإدارة والتعليم والمحيط... وفي هذا السياق الوطني الخاص انعقدت اللجنة الملكية للتعريب في عام ١٩٥٧، التي بلورت المبادئ الأربعة لمشروع إصلاح التعليم: التعريب، والمغربة، والتوحيد، والتعميم، وبعدها

(١٠٣) محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد [د. م.]: منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني، [د. ت.]. ص ٣٧٣.

(١٠٤) علال الفاسي، النقد الذاتي، ط ٨ (الرباط: منشورات مؤسسة علال الفاسي، ٢٠٠٨)، ص ٢٨٩.

أسس معهد دراسات وأبحاث التعريب (I.E.R.A) في عام ١٩٦٠^(١٠٥).

غير أن الأسئلة التي رافقت النقاش الوطني حول مسألة التعريب، مثل طبيعة التعريب المنشود، هل الكلي أم الجزئي؟ المرحلي أم الفوري؟ ثم ماذا سنعرب؟ وكيف سنعرب؟... قسّمت الجماعة الوطنية إلى ثلاثة تيارات رئيسية: التيار التقنوقراطي الحداثي (الفرانكفوني) الذي اعتبر استمرار الهيمنة الفرنسية ضرورية للانفتاح العلمي والاقتصادي، والاتصال بأسباب الحداثة والتقدم بالصفة الشمالية؛ و التيار التقليدي العربي - الإسلامي الذي مثّله نخبة القرويين وملحقاتها، والمنحدرة من التعليم الأصيل، وكان يرى جدارة العربية للقيام بسائر الأدوار، وبالتالي لا بد من إعادة الاعتبار إليها في سائر المجالات التي سُرقَتْ منها في ظل الاحتلال؛ و التيار الأنثروبولوجي الثقافي الذي حاول إقناع الأطراف كلها بضرورة اقتسام النفوذ بين اللغتين العربية والفرنسية، حيث جعل للأولى المجال الداخلي، وللثانية المجال الخارجي^(١٠٦).

إجمالاً، على الرغم من النقاش السياسي العميق والجاد بين سائر التيارات حول قضية التعريب، الذي عكسته المناظرات والندوات الوطنية الكثيرة التي نظمت لمدارسه، وما يتصل به (المعمورة ١٩٦٤، وإفران ١٩٨٠/٧٠)، والإجراءات المتخذة من الحكومات المتعاقبة في المملكة المغربية، فإن التعريب عملياً بقي محدوداً، وتأرجح بين تعريب شامل لبعض القطاعات (العدل)، وجزئي في قطاعات أخرى مثل التعليم والمالية والمعهد الوطني للإحصاء^(١٠٧)، الأمر الذي جعل الازدواجية اللغوية حقيقة ملموسة في الحياة العامة المغربية لا يمكن القفز عنها أو تجاهلها. وبحسب محمد بلبشير الحسني، مقرر لجنة التعليم في عهد السلطان محمد الخامس

Benzakour, Gaadi et Queffelec, pp. 57-58.

(١٠٥)

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٦٠.

(١٠٧) حاول مصطفى بنخلف تعريب سلك مهندسي الإحصاء، ونجح في تأسيس قسم معرب إلى جانب الأقسام المفرنسة، وذلك في عام ١٩٧٨، غير أن هذه التجربة فشلت بسبب المحاصرة وسياسة الإلحاق المتبعة في التعليم العالي، وقد تحدّث مصطفى بشكل وافٍ عن هذه التجربة في حوار مع مجلة عالم التربية. انظر: مصطفى بنخلف، «حوار صحفي»، عالم التربية، العدد ٤ (١٩٩٦)، ص ٣٣ - ٣٩.

(١٩٥٧)، كان للعاهل المغربي الراحل الحسن الثاني رأي حاسم في المدى الذي يجب أن يبلغه التعريب^(١٠٨).

بقيت اللغة الفرنسية في المغرب الأقصى بعد الاستقلال حاضرة بقوة في مجالات الإدارة الاقتصادية والتعليم الأساسي والعالي والمجال الأسري، واعتبارها لغة التخاطب في الإدارة، كما حافظت على وجودها، بل وعززته في الصحافة بأنواعها المختلفة والمجال الثقافي والفني وفي العلاقات الاجتماعية الخاصة بين الأصدقاء وداخل الأسرة^(١٠٩).

٢ - النخبة المفرنسة في المغرب الأقصى بُعيد الاستقلال

مكّن استخدام اللغة الفرنسية في التعليم الحديث في المغرب، وعلى مدى ستة عقود تقريباً، من تكوّن نخبة مفرنسة ماثورة في مختلف مرافق الدولة والمجتمع، تمثل لها الفرنسية لغة العمل، ولغة الثقافة والإعلام... واضطلعت هذه النخبة بأدوار مهمة في المملكة المغربية سواء في فترة الاحتلال أم بعد رحيله، وستتحول بعد مدة وجيزة إلى قوة فرانكفونية تربط مصير المغرب الحضاري بفرنسا.

نهجت سلطات الاحتلال الفرنسي سياسة إقصائية تجاه العناصر المعربة في المجال العمومي بمستوياته المختلفة، وفسحت في المقابل المجال أمام العناصر المفرنسة، المتخرجة حديثاً من المدارس الفرنسية - الإسلامية، ووضعت لهذا الغرض مجموعة من الضوابط القانونية، وعلى رأسها نظام المباريات في ولوج الوظيفة العمومية الذي لم يكن معروفاً من قبل في المغرب، بحيث أصبحت الشواهد المدرسية والدبلومات، وبخاصة شهادة

(١٠٨) صرّح لنا بلبشير في حوار حول هذا الموضوع أن وزير التربية الوطنية يوسف بلعباس أواخر عام ١٩٦٢ طلب منه إعداد مشروع للتعريب وإصلاح التعليم، وبعد تردّد قِبَل العرض، وتفرّغ إلى جانب عناصر أخرى لإعداد خطة لهذا الغرض، وبعد تمام الأمر وعرض المشروع على الملك الحسن الثاني، انتهى كل شيء، إذ طلب الملك من اللجنة إعادة النظر في المشروع، وبخاصة في جانب التعريب، وبعد رفضها بطريقة لبقّة، هذه المراجعة، طلب الملك مقابلتهم، وفي أثناء اللقاء أفصح الراحل الحسن الثاني عن موقفه من تعريب التعليم، وبخاصة في الأسلاك العليا، ولو على مدى زمني طويل، وهكذا فشلت هذه المبادرة.

الدروس الثانوية (البروفيه) التي كانت تقدمها المدارس الفرنسية شرطاً أساسياً لاجتياز معظم المباريات وأهمها، الأمر الذي لم يتوافر للطلبة المعربين المتخرجين من التعليم التقليدي، وجرى بالتالي إقصاؤهم من الوظيفة العمومية^(١١٠). ويحكي أحد الطلبة القرويين في عام ١٩٥٥ عن حالة الإقصاء هاته، ومصير طلبة التعليم الأصيل قائلاً: «فالوظائف أخذت توزع، وحظ المثقف بالعربية بات محددًا في دوائر خاصة لا تكاد ترضي طموح أصحاب النفوس التي لها نوع من الشفوف [...] وهكذا أصبح واضحًا أن أربعين سنة من الحماية أو تزيد كانت لمصلحة المثقف بالفرنسية، وأن حامل شهادة الدروس الثانوية بالفرنسية قد ينال من السلطة والنفوذ والمرتب في الدولة ما لا يجوز لحامل العالمية أن يحلم به»^(١١١).

على الرغم من صدور ظهير عام ١٩٥٥ الذي نص على تسهيل تكوين المغاربة، وإدماجهم في الوظيفة الإدارية ممن لم يحرزوا شهادات، وأوقف العمل بشرط الشهادة في التباري على الوظيف بشكل عام، ولمدة خمس سنوات^(١١٢)، فإن نهج الإقصاء بقي مستمرًا بأشكال مختلفة، وهو ما أكدته رابطة علماء المغرب في بيانها الصادر في عام ١٩٦٠، بعد مرور زهاء خمس سنوات على صدور الظهير السالف الذكر^(١١٣)، ما يدل على أن مشروع «تسهيل إدماج المغاربة في الوظيفة» الذي جاء به ظهير عام ١٩٥٥ كان مجرد دعاية سياسية، تزامنت مع أجواء التحضير للاستقلال، وإعلان الحكومة الأولى، ولم يرق إلى مشروع سياسي قابل للتنفيذ.

لعل أقوى مظاهر تغلغل الفرنسية في المجال السياسي المغربي،

(١١٠) هناك كثير من أمثلة المباريات التي نظمتها الإقامة العامة الفرنسية لاختيار بعض الموظفين من متخرّجي المدارس الفرنسية الإسلامية، وكفي في هذا السياق مباراة تعيين موظفين لقبض الضرائب البلدية، التي كانت تتطلب من المتقدمين لها الحصول على البروفيه. انظر: الجريدة الرسمية، العدد ٢٢١٥ (٨ نيسان/أبريل ١٩٥٥)، ص ٩٦٥.

(١١١) محمد الأمين الدرقاوي، تأملات وآراء حول التعليم الأصيل بالمغرب (الرباط: مطبعة الأمنية، ١٩٧٥)، ص ٥ - ٦.

(١١٢) الجريدة الرسمية، العدد ٢٢٢٦ (٢٤ حزيران/يونيو ١٩٥٥)، ص ١٧٨٢.

(١١٣) أحمد بن شقرون، مواقف وآراء رابطة علماء المغرب من التأسيس إلى المؤتمر العاشر (الرباط: منشورات رابطة علماء المغرب، [د. ت. د.]، ص ١٠١.

وتمكنها من نخبته، انتماء معظم أفراد الحكومات الأولى إلى المدرسة الفرنسية، بمن في ذلك بعض رموز الحركة الوطنية مثل عبد الله إبراهيم، وعبد الرحيم بوعبيد، غير أن أكثر هذه الأسماء حماسةً للفرنسة، وربط المغرب بالفلك الفرنسي: امبارك البكاي الهليل، رئيس وزراء المغرب في الحكومة الأولى، وأحمد رضا اكديرة، ومحمد بنهيمه... إلخ^(١١٤).

إلى جانب النخبة السياسية المفرنسة ظهرت في مغرب الاستقلال نخبة ثقافية «فرانكفونية»، استكمل معظم أفرادها تكوينهم العالي في الجامعات الفرنسية^(١١٥)، وعادوا إلى المغرب بلسان فرنسي مبین، ومن أشهر المثقفين المغاربة الكتّاب باللغة الفرنسية بُعيد الاستقلال:

- الأديب أحمد السفريوي: التحق بالمدرسة الفرنسية ومنها تخرج. ألف كثيرًا من النصوص الأدبية باللغة الفرنسية، من أشهرها: سبحة من عنبر (*Trois*) و *Le Chapelet d'ambre* (١٩٤٩)، والمدن الدينية الثلاث في المغرب (*Rêve du Maroc*) (١٩٥٥)، وأحلم بالمغرب (*Villes saintes du Maroc*) (١٩٧٠)، ونال عددًا من الجوائز تقديرًا لأدبه الفرانكفوني، من أبرزها: جائزة مارسولان غيران مهداة من الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٤٩، وجائزة رئيس الجمهورية الفرنسية^(١١٦).

- الأديب إدريس الشرايبي: تخرج من ثانوية ليوتي بالمغرب، ومنها انتقل إلى فرنسا لاستكمال تعليمه العالي في تخصص الكيمياء، وغلب عليه الأدب مبكرًا على الرغم من اتجاهه العلمي، قال عنه عبد الغني أبو العزم: «الشرايبي إنسان مهزوم تخلى عن وطنيته بكل بساطة وعن مجتمعه لمجرد رغبة ذاتية»^(١١٧).

(١١٤) الجريدة الرسمية، العدد ٢٢٥٢ (٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٥).

(١١٥) قبيل الاستقلال، وبعده بقليل، توزّع الطلبة المغاربة بين وجهتين علميتين رئيسيتين؛ مشرقية وغربية، ومن أهم أعلام الثقافة المغربية المعاصرة الذين استكملوا تعليمهم العالي في الشرق مستشار الملك عباس الجيراري الذي تخرّج من القاهرة، ومحمد عابد الجابري من سورية... في حين قصد الغرب عدد آخر من الطلبة، ومن أبرزهم الحبابي والعروي...

(١١٦) عبد الله بن العباس الجيراري، التأليف ونهضته بالمغرب (الرباط: منشورات نادي الجيراري، مكتبة المعارف، ١٩٨٥)، ص ٣٦ - ٣٧.

(١١٧) عبد الغني أبو العزم، «رأي في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية»، أقلام (الدار البيضاء)، العدد المزدوج ٤ - ٥ (١٩٦٧)، ص ١٢٥.

ألّف الشرايبي كثيرًا من النصوص الأدبية باللغة الفرنسية، كانت أولها رواية *Le Passé simple* عام ١٩٥٤، ثم تلتها روايات أخرى، انتشرت في شتى أنحاء العالم مثل *Les Boucs* (١٩٥٥)، *La Foule* (١٩٦١)، *Un ami viendra vous voir* (١٩٦٧)^(١١٨)...

- محمد عزيز الحبابي: من أوائل المغاربة الذين التحقوا بباريس لاستكمال دراستهم العليا في تخصص مثير في ذلك الوقت، وهو الفلسفة، حيث حصل هناك على شهادة الدكتوراه من السوربون، وبعد عودته إلى المغرب تفرغ للتدريس والبحث العلمي، واشتهر بنظريته في الشخصية الإسلامية، ألّف كثيرًا من الكتب والمقالات العلمية أغلبها بالفرنسية، تُرجم بعضها إلى العربية، ومن أهم هذه المؤلفات^(١١٩):

- *De L'Être à la personne: essai d'un personnalisme réaliste* (1953).
- *Du Clos à l'ouvert: vingt propos sur les cultures nationales* (1961).
- *Le Personnalisme musulmane* (1964).

أثار الظهور الفاعل للنخبة المفرنسة في مغرب الاستقلال - وبخاصة الثقافية منها - من خلال استعمالها اللغة الفرنسية، نقاشًا واسعًا في الحقل الثقافي المغربي، احتضنه عدد من المنابر الثقافية الصادرة في تلك الآونة، حيث اعتُبر استمرار اللسان الفرنسي في المغرب، أو ما يُسمى الازدواجية اللغوية نوعًا من الخيانة، وعلامة على الفشل في الاستقلال، وكارثة، في حين هناك من رأى خلاف ذلك. وتُعتبر مقالة عبد اللطيف اللعبي (١٩٦٦) حول «حقائق ومعضلات الثقافة الوطنية» (Réalités et dilemmes de la culture nationale)؛ ومقالة عبد الغني أبو العزم «رأي في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية» (١٩٦٧)، كافتين لمن أراد الاطلاع على أبعاد هذا النقاش الفكري، ووجهات النظر الرئيسة التي كان يتحصن وراءها كل من المعارضين والمؤيدين لـ «الأدب المغربي الفرنسي»؛ فبحسب اللعبي الثنائية اللغوية ليست مشكلة تصفية الاستعمار، لكنها مشكلة خاصة، مشكلة كاتب تلقى تعليمه في المدارس

(١١٨) Abdellatif Laâbi, «Questionnaire», *Revue Souffles* (Rabat), no. 5 (1967), p. 4.

(١١٩) الجبراري، ص ١٧١ - ١٧٢.

الفرنسية، ونشأ في تعليم أحادي مكنه من التعبير باللغة الفرنسية فقط^(١٢٠)،
والشيء نفسه يؤكد الأديب الفرانكفوني إدريس الشرايبي متحدًا عن تجربته
في حوار مع اللعبي نشرته أنفاس في عام ١٩٦٧^(١٢١).

هكذا، بعد مرور نحو ٤٤ سنة من القبضة الفرنسية المباشرة على
المغرب، آلت السلطة بطريقة سلسلة إلى النخبة المغربية المفروسة التي
تخرّجت من المدارس الفرنسية، ولم تختلف في هذا الباب العناصر الوطنية
عن العناصر الموالية لفرنسا. ولعل أبلغ دليل على عمق الفروسة في النخبة
المغربية، وبخاصة السياسية منها، ما صرّح به رئيس الوزراء في الحكومة
الأولى (١٩٥٥) الباشا امبارك البكاي الهليل أمام الفرنسيين في محادثات
إيكس ليان (١٩٥٨)، حيث قال: «إني متأكد من فرانكفونية المغاربة،
لكنهم يرغبون في تطور نحو سيادة المغرب وفي المحافظة على حقوق
فرنسا والفرنسية. إن المغرب لا يمكنه أن يطالب في عصر الذرة بدولة
منعزلة لأنه مزدوج اللغة»^(١٢٢). وفي الاتجاه نفسه أدى التعليم الفرنسي
الذي أقرته الحماية الفرنسية، والتعريب المتعثر بعيد الاستقلال إلى تبلور
نخبة ثقافية مفروسة، ساهمت في إثراء الساحة الثقافية المغربية بنصوص
أدبية وفكرية مختلفة.

٣ - اللغة الفرنسية في مغرب الاستقلال أو «التوسع الوظيفي» للفرانكفونية

لم تفقد اللغة الفرنسية بعد الاستقلال نفوذها في المجال التداولي المغربي
بمستوياته المختلفة، واستمرت في أداء مجموعة من الوظائف التي باتت
حكرًا عليها، أو تؤديها إلى جانب العربية، واستطاعت في مدة قصيرة أن تعيد
بناء شرعية محايثة للخطاب الوطني، ومتوافقة مع ظروف الاستقلال السياسية
والوجدانية، ما جعل المغرب مثالاً لـ «التوسع الوظيفي»^(١٢٣) للغة الفرنسية

(١٢٠) Abdellatif Laâbi, «Questionnaire», *Revue Souffles*, no. 4 (1966), pp. 9-10 and 12.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٩، وعبد الغني أبو العزم، ص ١٢٥.

(١٢٢) «مداخلة البكاي في محادثات إيكس ليان: المحاضر الرسمية لمفاوضات إيكس

ليان»، مجلة الملفات المغربية الكبرى (الرباط)، العدد ١ (نيسان/أبريل ١٩٩٦)، ص ١٤.

(١٢٣) اصطلاح كالفني على التوسع الفرانكفوني في أراض أخرى عبر العالم، وبعيدة من

جغرافيتها الطبيعية بـ «التوسع الوظيفي»، ومثل لهذا النوع من التوسع بما يجري في كيبك، وأفريقيا =

خارج جغرافيتها الطبيعية (فرنسا، والأجزاء الفرانكفونية من بلجيكا وسويسرا). من أهم المجالات التي تجلى فيها نفوذ اللغة الفرنسية، وأدت خلالها وظيفة تداولية واضحة، الإدارة والاقتصاد والتعليم والثقافة... ولم تستطع الحماسة الوطنية القوية التي رافقت لحظة الاستقلال شطب لغة الاستعمار من التداول الرسمي في الإدارة العمومية، والمجالات الحياتية الأخرى، إذ على الرغم من مناداة قطاع عريض من النخبة المغربية بالتعريب الشامل، وفي طليعتها حزب الاستقلال، استمر استعمال الفرنسية باعتبارها لغة إدارة في معظم المؤسسات العمومية، كلياً أو جزئياً، واستمرت معها أفضلية الأطر الفرنسية على المعربة، في تناقض تام مع الشعارات السياسية التي روجها الوطنيون المغاربة، وهذه حقيقة لا تخطئها العين، ولا تحتاج إلى دليل لإثباتها^(١٢٤).

طراً عليها معضلة الفرنسية في مغرب الاستقلال تحول كبير بين مطلع الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، فلم تبقَ مجرد قضية من قضايا تصفية «الإرث الاستعماري»، كما يظهر من خلال السجال الوطني، بل أمست قضية مرتبطة بأسئلة الحداثة والانفتاح الحضاري، ومن ثم لم يعد الخطاب الوطني الممجد للعربية في صدد أسئلة التقنية، والعلوم الحديثة، والإفادة من تجربة الآخر الأوروبي (فرنسا) في النهضة والتقدم، مقنعاً ووجيهاً، ما أرغم دعاة التعريب على التنازل عن راديكاليتهم اللغوية، ولو مؤقتاً، والقبول بنوع من الازدواجية، وبخاصة في التعليم.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما طرأت على الساحة السياسية الإقليمية والدولية بعض التطورات، أعادت توجيه السؤال اللغوي في البلدان الحديثة العهد بالاستعمار، وستصب في مصلحة الفرنسية، ويتعلق الأمر بتأسيس «وكالة التعاون الثقافي والتقني» بين الدول الفرانكفونية في القارات الخمس في عام ١٩٧٠^(١٢٥) التي ستأخذ على عاتقها مهمة دعم الفرنسية في

= السوداء... وتقوم الفرنسية في هذا النوع من التوسع بوظائف محدّدة خلافاً لوضعها في بيئتها الطبيعية. انظر: كالفني، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(١٢٤) رحمة بورقية، «التعدد اللغوي بين المجتمعي والسياسي»، مجلة المدرسة المغربية (الرباط)، العدد ٣ (آذار/مارس ٢٠١١)، ص ١٨، و Benzakour, Gaadi et Queffelec, pp. 76.

(١٢٥) كالفني، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ص ٣٦٧.

المستعمرات القديمة، ثقافيًا وسياسيًا، ما أتاح لفرنسا مرة أخرى العودة إلى مستعمراتها من باب البعد الثقافي «البريء»، حتى ترضى عنها «الشعوب والنخبة التي تكونت في المناخ الفرنسي دون أن تشعر بإحراج مع شعوبها أو حساسية دولية أو وخزة ضمير»^(١٢٦).

صفوة القول، إن التحولات السياسية الداخلية والخارجية التي أثرت في القرار اللغوي في مغرب الاستقلال، أمنت مكانة الفرنسية في الحياة المغربية، وحصّنت وظائفها القديمة والجديدة في الإدارة والاقتصاد والتعليم... في المقابل، حدّت من طموح العربية في استرجاع وظائفها التي سرقتها منها الامبريالية الفرنسية.

٤ - تأثير اللغة الفرنسية في الهوية المغربية

دخلت اللغة الفرنسية إلى المجال التداولي المغربي على ظهر أحصنة مختلفة، ففي البداية ركبت ظهر الإمبريالية، وبعدها استعملت شعارات الانفتاح والحداثة، وفي مرحلة ثالثة استفادة من الدعم السياسي والثقافي للمنظمة الفرانكفونية، واستطاعت من خلال هذه الوسائل حجز مكانة «وظيفية» مرموقة في الحقل اللغوي المغربي، وعلى حساب اللغة العربية التي كان يأمل أنصارها باستعادة وظائفها التاريخية بعد الاستقلال، ومن ثم ف «مغربة اللغة الفرنسية» في السنوات الأولى التي تلت إلغاء معاهدة الحماية (١٩٥٦)، وإخراجها سياسيًا وحضاريًا من دائرة الإرث الاستعماري، سيؤثر بدرجات متفاوتة في بنية الهوية المغربية، وعناصرها الأساسية.

الجدير بالذكر في هذا السياق أن الوعي المبكر لدى بعض أقطاب الحركة الوطنية المغربية بالصلة القوية بين اللغة والهوية، وعلى رأسهم قائد حزب الاستقلال الزعيم علال الفاسي^(١٢٧)، لم يستطع التأثير في «السياسة

(١٢٦) عبد الكريم غلاب، رهانات الفرنكفونية في علاقتها بمسألة التغير والهيمنة، سلسلة الدفاتر القومية؛ ٨ (الرباط: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩٩)، ص ٤٧.

(١٢٧) يقول علال الفاسي: «إن الأمة التي تتعلم كلها بلغة غير لغتها لا يمكن أن تفكر إلا بفكر أجنبي عنها»، ويُحدّث في السياق نفسه عن صديقه أحمد بلافيج: «العلم إذا أخذته بلغتك أخذته، وإذا أخذته بلغة غيرك أخذك». انظر: الفاسي، ص ٢٩٠.

اللغوية» للحكومات التي أعقبت الاستقلال، إلا بشكل محتشم، ولم يؤثر -
أيضاً - في مصير الفرنسية في المجال التداولي المغربي.

بالتالي، ساهم استعمال الفرنسية لغةً تدريس في عهد الحماية، وبعدها -
على الرغم من اختلاف شكل هذا الاستعمال بين العهدين - إلى تداعيات
مختلفة على الهوية المغربية بثوابتها المختلفة، وتجلت الإرهاصات الأولى
لهذا التحول في أمارات الحيرة التي بدت على وجه الثقافة المغربية بعيد
الاستقلال، والحاجة المتزايدة إلى إعادة تعريف الهوية المغربية في ضوء ما
استجدّ من معطيات، وفي هذا السياق كتب أحمد السطاتي في عام ١٩٦٤
مقالة دالة في مجلة أقلام^(١٢٨) عن وضعية المثقفين في المغرب، ضمّنها
بعض الأسئلة التي تعكس حيرة جيله، منها على سبيل المثال: إلى أي حد
يمكن أن نسير في تيار التطور الحديث من دون التخلي عن شخصيتنا؟ ما
الهوية الحقيقية للمغرب؟^(١٢٩).

غير أن هذا القلق الهوياتي الذي تجلت عباراته على وجه جيل
الاستقلال، لم يكن عامًا وشاملاً، يهم سائر أفراد هذا الجيل الذي تلقى
تعليمه في المدارس الفرنسية، بل وُجد من بين متخرّجي هذه المدارس
عدد لا بأس به ممن كانوا مطمئنن للصيغة الكلاسيكية للهوية المغربية،
ومدافعين عنها، ويرفضون كل تعديل يمسّ عناصرها، ومن أبرز هذه النماذج
محمد الفاسي الذي أشرف على أول محاولة تعريبية بعد الاستقلال^(١٣٠)،
ومحمد بلشير الحسني الذي أعدّ إلى جانب أفراد آخرين مشروع إصلاح
التعليم في عهد وزير التعليم بلعباس، ومحمد زيبير... واشتباك هؤلاء
مبكرًا مع دعاة الحداثة، وسنذكر في الفقرات التالية أمثلة من تناظر
الطرفين.

من ثم، يمكن مقارنة أزمة الهوية المغربية بعد الاستقلال بدلالة لغة

(١٢٨) أقلام مجلة ثقافية متنوعة، أصدرها مجموعة من الشباب الوطني ذي الميول الحداثيّة
ابتداءً من عام ١٩٦٤، ومن أبرز أقلام هذه المجلة محمّد برادة وأحمد السطاتي رئيس تحريرها
آنذاك...

(١٢٩) أحمد السطاتي، «وضعية المثقفين بالمغرب»، أقلام، العدد ١ (١٩٦٤)، ص ٢٥.

(١٣٠) الجبراري، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

التعليم (الفرنسية) من خلال ثلاثة مستويات رئيسية: إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر المغربي المعاصر إلى نهاية الستينيات، والتوسع الكمي لاستعمال اللغة الفرنسية في الحقل الثقافي، وبرز الحركة الثقافية الأمازيغية.

- إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر المغربي: إن رسوخ التعليم الفرنسي في المغرب الأقصى، والظروف الثقافية الجديدة التي ساهم في إحداثها أدت إلى توتر ثقافي غير مسبوق في المجال المغربي، ظهرت علاماته في السنوات الأولى بعد الاستقلال، حيث برز انشقاق واضح في الرؤى والتصورات حول مفهوم الهوية المغربية، حيث لأول مرة في تاريخ المغرب المعاصر ظهر الخلاف بشكل سافر بين دعاة الأصالة، ودعاة الحداثة.

لتقديم فكرة واضحة عن هذا التوتر الثقافي الذي شهده المغرب بعيد الاستقلال بسنوات قليلة، وطبيعة الصراع بين تياري الأصالة والحداثة، نستحضر مناظرة جادة وقوية بين كل من الأديب والناقد محمد برادة والأديب والمؤرخ محمد زنيبر، احتضنتها مجلة أقلام في عام ١٩٦٤.

كتب محمد برادة في العدد الثاني من مجلة أقلام مقالة بعنوان «عودة المثقفين»، يشير فيها إلى الأدوار التحديثة التي يجب أن يضطلع بها المثقف المغربي في عهد الاستقلال، وعلى رأس هذه الأدوار تمهيد الطريق أمام الحداثة بمعناها العام والشامل، فرد عليه محمد زنيبر في العدد الموالي بمقالة تحت عنوان «العودة إلى المجتمع المغربي»، ومما جاء فيها: «ومن الأخطار التي أرى ضرورة تجنبها هي هذا التهافت التعبدي على ثقافة أوروبا وأدبها، لنحاول أن نقدم ذلك كنماذج لأدب جديد في مجالاتنا»^(١٣١). وردّ محمد برادة على زنيبر في العدد الرابع من أقلام بمقالة «الثقافة بين التمثل والإبداع»، ومما جاء فيها: «إن كفاح الإنسان الذي استغرق زمناً طويلاً لتدليل الطبيعة، والسيطرة على خباياها يجب أن يوجه الآن لتغيير «طبيعة» البشر، وتخليصها من رواسب العصور الوسطى، وعصور المثاليات

(١٣١) محمد زنيبر، «العودة إلى المجتمع المغربي»، أقلام، العدد، ٣ (١٩٦٤)، ص ٣ - ٤.

والغيبات، لتتمكن من التكيف مع حضارة المستقبل... وهي حضارة ميزتها الأساسية «إعادة النظر» في جميع القيم القائمة، وإعداد عقليات جديدة تستطيع الانسجام مع عالم متضخم في كل المجالات...»^(١٣٢)، ويقول أيضًا في سياق آخر من المقالة نفسها: «أعتقد شخصيًا أن الارتداد إلى الماضي من خلال الدعوة إلى الأصالة، ورفض الاستفادة من النتائج المضمونة للقوة الحضارية، يشكّل عقبة أساسية في طريق التخلص من نمط عتيق للمفاهيم والعلاقات. فبدلاً من أن نتساءل عما إذا كانت الحقائق العلمية موافقة لروحنا الإسلامية، أو لمقوماتنا الشخصية، يجب أن نرى ما إذا كانت هذه الحقائق ستعمل على اعتناق الجماهير المحرومة»^(١٣٣).

إلى جانب هذه المناظرة انتشرت كتابات أخرى همّت أجناسًا مختلفة، تعرضت إلى المسألة الدينية في مغرب الاستقلال، ومكانة الدين في حياة المغاربة، من منظور التقدم، والحدثة، والوحدة الإنسانية، وحوث مجلة رسالة الأديب نماذج من هذه الكتابات، من أبرزها: الندوة التي نظمتها جمعية الأديب في مراكش عام ١٩٥٨ بعنوان «ما هو الدور الذي لعبه الدين في صنع تاريخنا؟»^(١٣٤)، ومحاضرة عبد الله إبراهيم بعنوان «نحو ثقافة متحررة» في العام نفسه^(١٣٥)... إلخ.

إن النقاش الذي دار بين محمد زبير ومحمد براءة في الستينيات، وقبله بعض المقالات التي ضمّتها مجلة رسالة الأديب، مسّ في العمق أساسًا استراتيجيًا من أساسات الهوية المغربية وهو الإسلام، فالإجماع البديهي حول مفهوم الإسلام ودوره، الذي كان شامة المثقفين المغاربة عبر التاريخ، أمسى متجاوزًا، حيث ظهرت في المغرب في هذه الفترة شريحة مهمة من المثقفين، تطل بأعناقها على تجربة الغرب، وتدعو - في أحسن الأحوال - إلى «إعادة النظر» في دور الدين في المجتمع المغربي، وإعادة

(١٣٢) محمد براءة، «الثقافة بين التمثل والإبداع»، أقلام، العدد ٤ (١٩٦٤)، ص ٤.

(١٣٣) المصدر نفسه، ص ٦.

(١٣٤) انظر تقرير الندوة في: رسالة الأديب، العدد ٢ (١٩٥٨)، ص ١٣٤ - ١٣٨.

(١٣٥) عبد الله إبراهيم، «نحو ثقافة متحررة»، رسالة الأديب، العدد المزدوج ٦ - ٧

(١٩٥٨)، ص ٥ - ١٣.

بناء مفهوم الأصالة الذي أضحى ممزقًا بين ثلاث نظرات على الأقل بحسب العروي: الشيخ، ورجل الدين، وداعية التقنية^(١٣٦).

لعل أقوى تعبير نظري وفلسفي عن هذا التحول الهوياتي الذي طاول مفهوم الإسلام ودوره في المجتمع المغربي هو مشروع الشخصية الإسلامية الذي بلوره الفيلسوف محمد عزيز الحبابي ردًا على فشل محاولة الإصلاح الروحي التي قادتها السلفية في الوطن العربي من جهة، ومنعًا للتهافت التعبدي - بتعبير زنيبر - على مباحج الحضارة الغربية من جهة ثانية، وتجسد مشروع الحبابي في كتب عدة بالفرنسية قبل أن تترجم إلى العربية، ومن أبرزها: من الكائن إلى الشخص (١٩٦٢)، الشخصية الإسلامية (١٩٦٤)، من المنغلق إلى المنفتح (١٩٦١). ويُعد مشروع الشخصية نوعًا من التوفيق الفلسفي الرائع بين الأصالة وضرورات المعاصرة.

- استعمال اللغة الفرنسية في الحقل الثقافي والدلالة الهوياتية: إن استعمال اللغة الفرنسية في التعليم في المغرب المعاصر أنهى احتكار اللغة العربية المجال الثقافي، ومنح لغة فولتير موطئ قدم قويًا، إذ لم تُعد الثقافة المغربية بالضرورة عربية اللسان، كما كان الشأن في السابق، بل أصبح جزء مهم من هذه الثقافة مكتوبًا باللغة الفرنسية، وهذه الظاهرة بالغة الدلالة في ما يتعلق بمآل الهوية المغربية ومفهومها. ومن ثم سنحاول في ما يلي اكتشاف حجم النفوذ الفرانكفوني في مغرب الاستقلال من خلال تطور كل من الإصدارات العربية والفرنسية في الحقبة المعاصرة، والخصائص النوعية لهذا التطور، وتتويج ذلك بتقويم آثار هذا التطور، باتجاهاته المختلفة، في الهوية المغربية.

على الرغم من ضعف المصادر البليوغرافية التي تهتم تطور الطباعة في مغرب الاستقلال، والنقص الذي يعتري الكثير منها، فإننا سنسعى إلى إلقاء الضوء على هذه الإشكالية انطلاقًا مما توافر لنا من منشور، وبصفة خاصة الدراسة القيّمة لمحمد الصغير جنجار عن «الطباعة في مغرب الاستقلال

(١٣٦) عبد الله العروي، الأيديولوجية العربية المعاصرة، ط ٣ (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦)، ص ٣٣ - ٤٨.

(١٩٥٥ - ٢٠٠٣)»^(١٣٧) التي تتبعت التطور الكمي للمطبوعات المغربية، من خلال مؤشرات نوعية، مثل السنوات ولغات التأليف.

بين عامي ١٩٥٥ و١٩٧٤، بلغت نسبة المطبوعات المغربية الثقافية والأكاديمية باللغة الفرنسية ٥١,٥ في المئة، في حين لم تتجاوز المطبوعات العربية نسبة ٤٨,٥ في المئة. وعلى الرغم من تراجع نسبة المطبوعات الفرنسية في السنوات التالية، حيث اقتربت من الربع في السنوات الأخيرة (٢٣ في المئة)^(١٣٨)، فإنها ما زالت تُشكّل معطًى بنيويًا في الثقافة المغربية المعاصرة، وما يزيد من أهمية هذا الاستنتاج هو النفوذ القوي للغة الفرنسية في بعض المجالات الثقافية، وبخاصة الاقتصاد والإدارة والسوسيولوجيا... فمعظم المنشورات الفرنسية في المغرب بين عامي ١٩٥٥ و٢٠٠٣ كانت في هذه التخصصات، حيث بلغت نسبة كتب الاقتصاد ٢٢ في المئة من النسبة العامة للمنشورات الفرنسية في هذه الحقبة، مقابل ٣ في المئة من المطبوعات العربية في الميدان الاقتصادي، والأمر نفسه يتكرر مع الإدارة، حيث تمثل المطبوعات الفرنسية نسبة ٣ في المئة، في حين تمثل المطبوعات العربية في المجال نفسه ٠,٣ في المئة^(١٣٩).

تدل هذه الأرقام بشكل ملموس وقاطع على تفرس قطاع حيوي وحديث من العقل الثقافي المغربي، وبالتالي أمست الثقافة المغربية - انطلاقًا من هذه الأرقام، والحقائق - مصابة في إحدى خصائصها النوعية والتاريخية وهي العروبة، ولا نحتاج إلى دليل أو تحليل لربط الصلة بين مكانة الفرنسية في التعليم ومكانتها في المشهد الثقافي المغربي.

من ناحية أخرى، أمست اللغة الفرنسية في المغرب «لغة أم» بالنسبة إلى عدد من المغاربة، وإن كان قليلًا فإنه آخذ في الارتفاع، تبعًا لانتشار التعليم الخاص الفرنسي، وتوسع النشاط التعليمي للبعثات الأجنبية في المغرب وبشكل خاص البعثة الثقافية الفرنسية (المعهد الثقافي

Mouhamed-Sghir Janjar, «L'édition dans le Maroc indépendant: 1955- 2003.» état des (١٣٧) lieux, <<http://www.rdh50.ma/fr/pdf/contributions/GT9-3.pdf>>.

(١٣٨) المصدر نفسه، ص ٥١.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٥.

الفرنسي)^(١٤٠)، وعلى الرغم من عدم توافرنا على أرقام ودراسات دقيقة حول هذه الظاهرة الحساسة، فإن آثارها ظاهرة للعيان، وما يؤسف له من زاوية موضوعنا أن معظم هؤلاء الناطقين بالفرنسية خرجوا من جلباب العربية لغة وثقافة، ويجدون صعوبة كبيرة في الاتصال بالمصادر الثقافية للعروبة والإسلام، إذ جلُّها مكتوب باللغة العربية^(١٤١).

- الحركة الثقافية الأمازيغية: استهدفت السياسة الثقافية لسلطات الحماية في المغرب زعزعة الاستقرار اللغوي الذي كان يعيشه البلد، والتدخل على مستوى وظائف اللغات المتداولة، وخصوصاً اللغتين العربية والأمازيغية، وفي هذا السياق سعت إلى نقل الأمازيغية من لغة التواصل الاجتماعي إلى لغة ثقافية منافسة للعربية بعد أن كانت متكاملة معها، حيث مكنتها من الحرف، ودعمت البحث العلمي في إظهارها، وأنشأت المدارس البربرية... ومن الواضح اليوم - بعد أن أميط اللثام عن وثائق الحماية - أن حماسة الفرنسيين للغة الأمازيغية في الفترة الاستعمارية، والدعم السياسي الكبير الذي استفادت منه، لم يكن حباً بالأمازيغية والأمازيغ، لكن حافزه الرئيس هو تقليص نفوذ العربية، ومن ورائها الإسلام باعتبارهما ركني الهوية المقاومة للمشاريع الاستعمارية في المغرب الأقصى^(١٤٢).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: ما دور لغة التدريس في هذه الخلخلة الوظيفية؟

يقول ليوتي في دوريته التي أشرنا إليها سابقاً: «علينا أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية»^(١٤٣). وتنفيذاً لهذه الأوامر،

Benzakour, Gaadi et Queffelec, p. 76.

(١٤٠)

(١٤١) بلغ عدد الكتب المطبوعة باللغة العربية التي تناول موضوع الإسلام بين عامي ١٩٥٥ و٢٠٠٣ في المغرب ١٠١١ كتاباً، بينما لم تتجاوز نظيراتها المطبوعة بالفرنسية ١٢٢ كتاباً في الفترة نفسها، ما يدل على أن العربية ما زالت المصدر الرئيس لتلقي الإسلام ثقافياً. انظر: Janjar, p. ٥٥.

(١٤٢) لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع انظر على سبيل المثال: الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية، ومحمد الأوراعي، التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي (الدار البيضاء: منشورات جامعة محمد الخامس، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٢)، ص ١٢٦ - ١٢٩.

(١٤٣) الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية، ص ٨٦.

وغيرها، استقلت اللغة الفرنسية بالتعليم في المناطق البربرية، وأمست
الواسطة الوحيدة في تلقين البربرية، وفرض الحرف اللاتيني في تدريسها...
وأدت هذه السياسة التعليمية مع مرور الوقت إلى ظهور نخبة حركية أمازيغية
تحسّ بنوع من العطف والحميمية تجاه الفرنسية، وباردة وغير مكترثة بمصير
العربية، وهو ما جعل الكثير من عناصرها لا يرون في السياسة الفرانكفونية
أي تهديد «لهويتهم»، ولم يقفوا موقفًا واحدًا مصادًا لسياسة الفرنسة.

هكذا، إن خصوصية العلاقة بين لغة التدريس (الفرنسية) والدعوى
الأمازيغية التي ترجع إلى الفترة الاستعمارية جعلت الحركة الثقافية
الأمازيغية بعد رحيل الاستعمار مناصرة للفرانكفونية وضد العربية، أو في
أحسن الأحوال محايدة تجاه الأولى ونشطة ضد الثانية، إلى درجة أمست
معها هذه الصفة علامة هوياتية مميزة للسلوك الثقافي والسياسي الأمازيغي
في مغرب الاستقلال^(١٤٤).

خاتمة: انشقاق الهوية

حاولنا على امتداد الصفحات السابقة تتبع التفاعلات المختلفة بين لغة
التعليم والهوية في المغرب الأقصى، في محطتين تاريخيتين دالتين: وسيطية
ومعاصرة. وأتاحت لنا هذه المتابعة فرصة التقدير الموضوعي لآثار لغة
التدريس في الهوية المغربية، ودينامية هذا التأثير. وسنحاول في نهاية هذا
المطاف تقديم أهم خلاصات هذه الدراسة:

١ - دخلت اللغة العربية المغرب الأقصى في جوار الدين، وتحت
مظلتها، ولم يحدث أبدًا أن تقدمت عليه، ولم يكن طموحها في العقود
الأولى من تاريخ الإسلام في شمال أفريقيا يتجاوز الدور الرسالي أو الوظيفة
الدينية، وكانت تقدم نفسها مجرد حامل (Support) للهوية «الإسلامية -
الأمازيغية»، غير أن التطورات الثقافية والحضارية التي شهدتها المركز

(١٤٤) هذه الحميمية تجاه الفرنسية تتجلى في الحساسية المفرطة تجاه التعريب، حيث رأى الآباء
المؤسسون، وعلى رأسهم محمد شفيق، في محاولات التعريب محقًا للهوية الأمازيغية، في حين لم يظهر
أي رد فعل اتجه مشاريع الفرنسة. انظر: شفيق، ص ٥٢.

الإسلامي في الشرق، وهبوب رياح هذه التطورات على بلاد المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري والقرون التالية... أحدثت تحولاً جوهرياً في وظيفة اللغة العربية ومكانتها التداولية، حيث أمت لغة الثقافة والتعبير المجرد بالجنح الغربي الإسلامي، ومنذ ذلك الحين تحول وضع اللغة العربية من لغة حاملة للهوية إلى هوية.

في هذا السياق، يُعتبر مفهوم المغرب العربي مرادفًا نظريًا لحقيقة تاريخية جسدها تحول العربية عملياً إلى لغة الثقافة المغربية، بعد نحو قرنين من الزمان من دخول الإسلام إلى المغرب الأقصى، وهو - أيضاً - تجاوز ثقافي لمفهوم المغرب الإسلامي. تزامن هذا التطور مع ما سَمَّيناه «ظهور العلم» في المغرب الأقصى. ولم يكن مدلول «المغرب العربي» منذ ظهوره وإلى الفترة المعاصرة يعني انقلاباً ثورياً في الحقل التداولي، واتخاذ أهل المغرب اللسان العربي بديلاً من اللسان البربري، بل على العكس من ذلك، استمر وجود اللسان المحلي في الحدود نفسها تقريباً التي كانت معروفة من قبل، ومن ثم كان مدلول المغرب العربي في هذه الآونة يعني بالدرجة الأولى الانتماء الرسمي والطوعي للمغاربة بمكوناتهم الإثنية المختلفة إلى الثقافة العربية فقهاً وشعراً وعلوماً عقلية.

غير أن مردود اللغة العربية (لغة تدريس) على مستوى الهوية تجاوز الجانب الثقافي أو العقلي إلى جانب أعمق منه وهو الوجدان، فلأول مرة أحس المغاربة مع العربية بوحدة الانتماء الحضاري، وهو ما جعل منهم أمة مشتركة الخصائص، مسنودة بأمة أكبر وأعظم، وهي الأمة العربية والإسلامية.

٢ - دخلت اللغة الفرنسية مجال التعليم في المغرب الأقصى في أواخر القرن التاسع عشر، وتعزز حضورها في عهد الحماية الفرنسية، حيث أصبحت اللغة الرسمية لسلطات الحماية، وأكّره المغاربة خلال هذه الفترة بأشكال مختلفة على التعلم بالفرنسية، وكان هدف الاحتلال من خلال توسيع التعليم الفرنسي، وبالتالي تداول الفرنسية هو تفكيك مرجعية «المقاومة الوطنية» التي في جوهرها مرجعية إسلامية عربية، ومن ثم تمهيد الطريق للاستغلال الاستعماري، واستطاع الاحتلال من خلال هذه الوسيلة

أن يستقطب منذ وقت مبكر بعض ضعاف العقول من المغاربة الذين كانوا عوناً له على مشاريعه الاستغلالية.

غير أن إشكالية استخدام اللغة الفرنسية في التعليم المغربي أخذت في الظهور بعد الاستقلال، إذ لم تستطع سلطات الاستقلال على الرغم من حماسها الوطنية شطب لغة المستعمر، وتمكنت هذه الأخيرة تحت دثار الانفتاح الحضاري، وضرورات التنمية العلمية والتقنية أن تحجز لنفسها مكاناً آمناً في النظام التعليمي المغربي، فهل استطاعت اللغة الفرنسية قهر شهوتها والاكتفاء بوظيفة التفتح؟ ثم ما انعكاسات استمرارها على الهوية المغربية؟

إن طريقة إدماج اللغة الفرنسية في التعليم بعد الاستقلال، والدعم السياسي الذي لاقته من طرف بعض عناصر «جيل الاحتلال» الذي كان يدافع على الفرنسية من منطلق عقلاني ممزوج بنوع من الإعجاب بالآخر، أدى إلى إمبريالية وظيفية من طرف اللغة الفرنسية، بحيث حافظت على وظائفها التي كانت لها في دولة الحماية، مع تعديلات طفيفة، وبخاصة في مجالات الإدارة، والتعليم العالي، والاقتصاد، والمالية... وأعدت بناء شرعيتها الحضارية، بحيث لم تعد في نظر كثيرين إرثاً استعماريًا وجب التخلص منه.

هكذا، أدى رسوخ قدم الفرنسية في التعليم المغربي بأشكاله المختلفة إلى مردود متباين على الهوية المغربية، تجلى أساساً في:

- إنهاء احتكار العربية للثقافة المغربية، وإشراك الفرنسية معها حيث أصبح هنا من يتحدث عن الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية... ويشكل اليوم الإنتاج الثقافي المغربي الفرانكفوني نحو ثلث الإنتاج الوطني؛
- بروز توترات ثقافية حادة من جراء عملية الإخصاب غير الطبيعية للثقافة التقليدية بالثقافة الفرنسية، وفي مقدمها إشكالية الأصالة والمعاصرة؛
- ظهور جيل من المغاربة تُعتبر الفرنسية لغتهم الأم، لغة البيت والمدرسة والعمل.

إن التطور الذي شهدته الهوية المغربية في العقود الأخيرة، والانعكاسات المختلفة التي صاحبت استقرار الفرنسية في الكيان المغربي، لم تفصح بعد عن صورة واضحة وتامة للهوية المستقبلية للمغرب، غير

أنها كشفت عن انشقاق مزمن في الهوية العربية - الإسلامية، وتصدع داخلي خطير مسّ مفهوم الإسلام، وحقيقة الانتساب إلى العروبة، ومفهوم الوحدة الثقافية. ولعل أبرز أسباب هذا الانشقاق، والتوترات العالقة به، تعطيل الدينامية الذاتية للهوية واستبدالها بدينامية أخرى جل عواملها تقع خارج البنية.

صفوة القول، إن التساهل أو التهاون في المراقبة الوظيفية للغة الأجنبية، والإذن لها بتجاوز الوظائف الرئيسة التي من أجلها سُمح لها بالوجود، يؤدي إلى اضطراب هوياتي خطير، يؤثر في تماسك الجماعة وانسجامها الثقافي، ويفسح الطريق أمام تحول هوياتي سيؤدي - لا قدر الله - مع مرور الزمان، وبيطء إلى إضعاف روابط المغرب الأقصى مع الأمة العربية.